

فضيلة الشيخ

عبد الحميد كشك



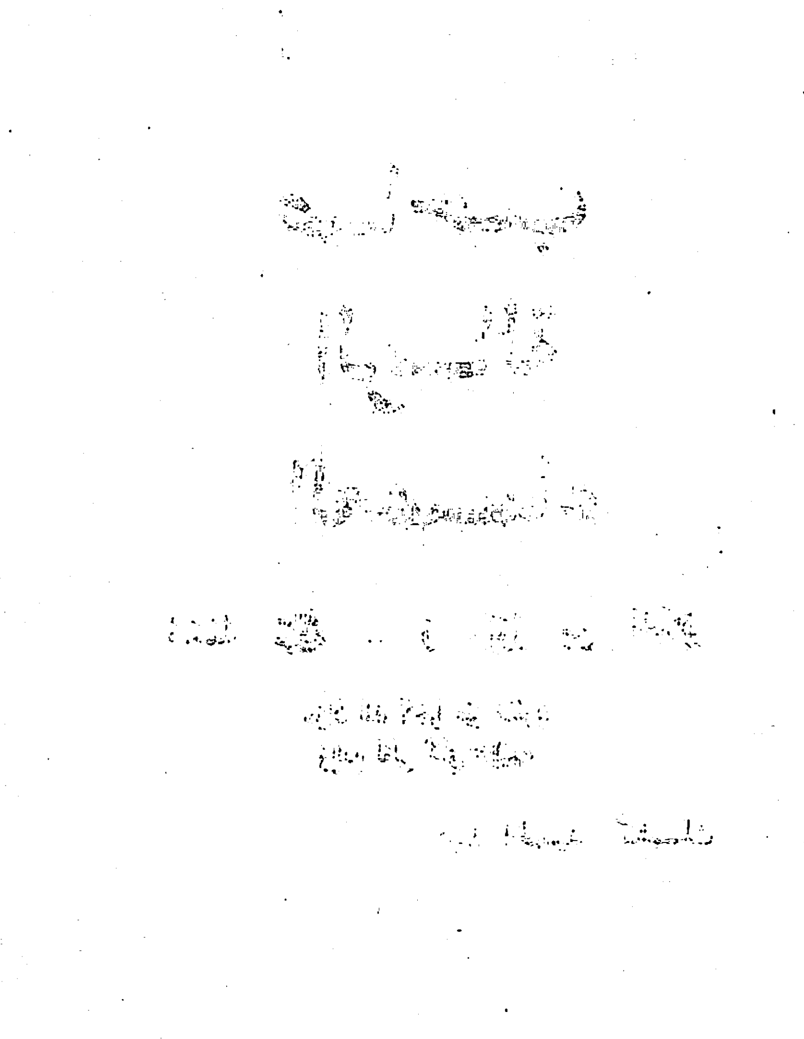
١٣٠ قرشا

صاحب الرسالة العصماء

مُحَمَّدٌ ﷺ .. وَ صُوَرٌ مِن أخلاقِهِ

«وَإِنَّ لَكَ لَأَجرًا غَيرَ مَمنُونٍ
وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ»

عبد الحميد كشك



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله ولى الصالحين ، وأشهد أن سيدنا ونبينا وعظيمنا وحبيبنا محمدا رسول الله خاتم الأنبياء والمرسلين. اللهم إنا قد رضينا بك ربا ، وبالاسلام دينا ، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا.

التحيات لله ، والصلوات والطيبات. السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته. السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله. اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم فى العالمين انك حميد مجيد.

وبعد :

فهذا كتاب أتحدث فيه عن السراج المنير ، سيدنا محمد ﷺ ، صاحب الحوض المورود ، واللواء المعقود ، والمقام المحمود ، والموقف المشهود. ولكن عن أى شىء أتحدث ، والكلام عن رسول الله ﷺ يتناول جوانب عدة. وما مثلى فى الحديث عن رسول الله

الا كشعاع الشمس المتسلل من حنايا النافذة ومن ثم ، فاننى سأحاول تركيز الكلام فى هذا الكتاب عن الجانب الخلقى الذى تجلى فى رسول الله ﷺ رجاء أن يهدى الله به قوما تنكبوا الطريق ، ويفتح به أعينا عميا ، واذانا صما ، وقلوبا غلفا.

(لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين).

(لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم. فان تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم).

(يسبح لله ما فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم. هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين. وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم).

ما أحوج الأمة الى القدوة الصالحة. ألا وان مثل القدوة من الأمة كمثل الرأس من الجسد ، أو الروح من المادة ، فكيف يحيا جسد بلا رأس ، أو بدن بلا روح ؟ وليس لهذه الأمة من قدوة صالحة إلا رسول الله ﷺ.

(قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم. قل أطيعوا الله والرسول فان تولوا فان الله لا يحب الكافرين).

(من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا. فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما).

(يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم).

(والله ورسوله أحق ان يرضوه ان كانوا مؤمنين).

(يا أيها الذين امنوا اتقول الله وامنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم).

(يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم. تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون).

الأخـلاق فى أقوال رسول الله ﷺ

أفاضت الأحاديث الصحيحة فى بيان الأخلاق التى بعث عليها النبى ﷺ.

وها نحن أولاء نذكر جانبا من هذه الأحاديث ، تبركا بأقوال النبى ﷺ كما تبركنا من قبل بآيات بينات من كتاب الله سبحانه وتعالى.

ماذا قال نبينا ﷺ فى البر؟

عن النواس بن سمعان الأنصارى رضى الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والأثم ، فقال: «البر حسن الخلق ، والاثم ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس». رواه مسلم والترمذى.

فالاثم ما تردد فى الصدر ، ولم يطمئن له القلب ، وكرهت أن يراه الناس. والبر حسن الخلق. وأحسن ما قيل فيه انه فعل الواجبات ، والبعد عن المحرمات والبشاشة مع الناس ، والاحسان اليهم.

وقال وابصة بن معبد : أتيت رسول الله ﷺ أسأله عن البر ،

فقال «جئت تسأل عن البر؟ قلت: نعم. قال: البر ما اطمأنت اليه النفس ، واطمأن اليه القلب ، والاثم ما حاك فى النفس ، وتردد فى الصدر ، وان أفتاك الناس وأفتوك».

ماذا قال نبينا ﷺ عن بر الوالدين؟

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: جاء رجل الى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتى؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال ثم من؟ قال: ثم أبوك» رواه الشيخان.

وعنه قال رجل: يا رسول الله من أحق الناس بحسن الصحبة؟ قال: أمك ، ثم أمك ، ثم أمك ثم أبوك ثم أدناك فأدناك» رواه مسلم.

ذكر ﷺ الأم ثلاث مرات ، ثم ذكر الأب بعدها لعظم حقها مما قاسته فى حمله وارضاعه ثلاثين شهرا ، وسهرهابه، واحتراق قلبها عليه حتى ربته.

وعنه عن النبى ﷺ قال: «رغم أنفه ثم رغم أنفه ، ثم رغم أنفه ، قيل من يا رسول الله؟ قال: من أدرك والديه عند الكبر

أحدهما أو كليهما ثم لم يدخل الجنة». رواه مسلم والترمذى.

وقالت أسماء رضى الله عنها: قدمت أمى وهى مشركة فى عهد قريش إذ عاهدوا رسول الله ﷺ مع أبيها ، فاستفتيت النبى ﷺ فقلت: ان أمى قدمت وهى راغبة أفأصلها؟ قال: «نعم صلى أمك» رواه الشيخان.

عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جدم رضى الله عنهم «قلت: يا رسول الله من أبر؟ قال: أمك ، ثم أمك ، ثم أمك ، ثم أباك ، ثم الأقرب فالأقرب ، لا يسأل رجل مولاه من فضل هو عنده فيمنعه اياه الا دعى له يوم القيامة فضله الذى منعه شجاعا أقرع» رواه أبو داود والترمذى.

وقيل يا رسول الله من أبر؟ قال أمك ، وأباك ، وأختك ، وأخاك ، ومولاك الذى يلى ذلك ، حق واجب ، ورحم موصولة». رواه أبو داود.

عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رجلا من الأعراب لقيه بطريق مكة فسلم عليه ابن عمر وحمله على حمار كان يركبه وأعطاه عمامة كانت على رأسه ، فقال ابن دينار: أصلحك الله أنهم الاعراب وهم يرضون باليسير ، فقال عبد الله: أن أبا هذا كان ودا لعمر بن

الخطاب ، وانى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ان أبر صلة الولد أهل ود أبيه» رواه مسلم وأبو داود والترمذى.

وجاء رجل من بنى سلمة فقال يا رسول الله هل بقى من بر أبوى شيء أبرهما به بعد موتهما؟ قال: نعم الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وانفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التى لا توصل الا بهما ، واكرام صديقهما» رواه أبو داود والبيهقى.

عن أبى الطفيل رضى الله عنه قال: «رأيت النبى ﷺ يقسم لحما بالجعرانة ، وأنا يومئذ غلام أحمل عظم الجزور ، اذ أقبلت امرأة حتى دنت من النبى ﷺ فقام إليها، فبسط لها رداءه ، فجلست عليه ، فقلت من هى ؟ فقالوا هذه أمه التى أرضعته» رواه أبو داود.

والمقصود بأمه التى أرضعته «حليمة السعدية».

عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: «رضا الرب فى رضا الوالد ، وسخط الرب فى سخط الوالد».

وعن البراء رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «الخالة بمنزلة الأم».

وجاء رجل الى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله انى أصبت ذنبا

عظيما ، فهل لى من توبة؟ قال «هل لك من أم؟ قال: لا ، قال هل لك من خالة؟ قال: نعم ، قال: فبرها» روى هذه الأربعة الترمذى.

ماذا قال نبينا ﷺ فى الأبناء؟

اذا كان الرسول ﷺ قد بين لنا حقوق الوالدين على الأولاد ، فانه عودنا دائما أن يقيم الوزن بالقسط حتى لا يختل الميزان ، فبدأ يبين لنا حقوق الأبناء على الآباء. والله تبارك وتعالى يوجه الخطاب إلى المؤمنين فيقول: «يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة».

إذن فمسئولية كل انسان عن أهله تعادل مسئوليته عن نفسه بدليل أن الله تعالى قرن الأهل بالنفس فى هذه الآية حيث قال: (قوا أنفسكم وأهليكم).

فماذا قال نبى الرحمة فى هذا المقام؟

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قَبَّلَ رسول الله ﷺ الحسن بن على وعنده الأقرع بن حابس التيمى جالسا ، فقال: ان لى عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا. فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم

قال: «من لا يرحم لا يرحم» رواه البخارى وأبو داود والترمذى.

وقال أسامة بن زيد رضى الله عنهما: كان رسول الله ﷺ يأخذنى فيقعدنى على فخذه ويقعد الحسن على فخذه ثم يضمهما ثم يقول «اللهم ارحمهما فانى أرحمهما» رواه البخارى.

ويزيد الرسول مقام الرحمة بالأبناء رحمة ورحمة.

فعن عائشة رضى عنها قال: «جاء أعرابى الى النبى ﷺ فقال: أتقبلون الصبيان فما نقبلهم؟ فقال النبى ﷺ: أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة» رواه الشيخان.

ويرغب الرسول ﷺ فى الرضا بما قضى الله اذا رزق الانسان البنات ، وان المؤمن يجب أن يقوم حاله على الشكر والصبر والا يقنط أو ييأس من رحمة الله أبدا.

عن عائشة قالت: جائتنى امرأة ومعها ابنتان تسألنى فلم تجد عندى غير تمرة واحدة فأعطيتها فقسمتها بين ابنتيها ، ثم قامت فخرجت ، فدخل النبى ﷺ فحدثته فقال «من بلى من هذه البنات بشيء فأحسن اليهن كن له سترا من النار» رواه الشيخان والترمذى.

ولمسلم والترمذى «من عال جاريتين حتى يدركا دخلت أنا وهو

الجنة كهاتين» ومعنى من عال ، أى قام بأمرهما ، جاريتين: أى بنتين ، حتى يدركا فتستغنيان عنه بالكسب أو الزواج ، دخل الجنة مع النبى ﷺ.

وتزيد دائرة المعاملة للاناث فتشمل غير البنات ، بل وتتسع الى أن تشمل الأخوات. ولو كانتا اثنتين من البنات أو الأخوات.

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «من كان له ثلاث بنات أو ابنتان أو أختان فأحسن صحبتهن واتقى الله فيهن فله الجنة» رواه الترمذى وأبو داود.

بل ان رحمة الله تعالى وثوابه الجزيل يشمل من أحسن الى أنثى من بناته ولو كانت واحدة.

فعن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: «من كانت له أنثى فلم يئدها ، ولم يهنها ، ولم يؤثر ولده عليها ، أدخله الله الجنة» رواه أبو داود.

لم يئدها: أى لم يدفنها حية كعادة الجاهلية الشنيعة. ولم يؤثر ولده: أى الذكر عليها ، بل يحسن الى الأولاد فى حياته على السواء.

اذا كان هذا هو جانب الرحمة بالأبناء ، فان جانب التأديب له مكانته فى الاسلام ، كما أن له آثاره الايجابية. وليس هناك أدنى شك

فى أن الرحمة لا تتناقض مع التآديب ، بل ان التأديب جزء من الرحمة ، لا يمكن أن ينفصل أحدهما عن الاخر. وكما حث الرسول ﷺ على الرحمة بالأبناء ، فانه فى نفس الوقت يحث على تأديبهم.

فعن جابر بن سمرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «لأن يؤدب الرجل ولده خير من أن يتصدق بصاع».

عن أيوب بن موسى عن أبيه عن جده رضى الله عنهم عن النبى ﷺ قال: «ما نحل والد والدا من نحل أفضل من أدب حسن» رواه الترمذى.

ومعنى الأدب الحسن أن يعلمه كيف يأكل. وكيف يشرب ، وكيف يعامل الناس ، وكيف يسعى لعيشه بينهم ، ويحسن عشرتهم. والواجب عليه لربه ولخلقه ، فيدخل فى تعليمه بما يناسب الزمان والمكان فى حدود ما أمر الله.

والتوفيق بيد الله تعالى يهبه لمن يشاء.

تجب صلة الرحم ويحرم قطعها

قال الله تبارك وتعالى «وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف

ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا. ربكم أعلم بما فى نفوسكم أن تكونوا صالحين فانه كان للأوابين غفورا. وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا. ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا. وأما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا».

فماذا قال نبى الرحمة وامام الهدى عن صلة الأرحام؟

لقد قال حقا ، ونطق صدقا ، وهذه قطرات من فيض جوده ، ونظرات بعين كرمه ، وهو يوصى بصلة الأرحام:

عن أبى أيوب رضى الله عنه أن رجلا قال: «يا رسول الله أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ، فقال رسول الله ﷺ : تعبد الله لا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة ، وتصل الرحم» رواه الشيخان.

ومعنى قوله: وتصل الرحم: أى تحسن الى أقاربك بما تيسر لك على حسب حالك وحالهم من انفاق أو سلام أو زيارة ونحوها.

صلة الرحم تبسط الرزق وتزيد العمر.

فعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «من سره أن

يبسط له فى رزقه ،: وأن ينسأ له فى أثره فيصل رحمه» رواه الثلاثة.

متى يعتبر الانسان واصلا لرحمه؟

للبخارى وأبو داود والترمذى «ليس الوصل بالمكافىء ، ولكن الواصل الذى اذا قطعت رحمه وصلها».

تدل احاديث رسول الله ﷺ على أن الواصل الحقيقى للرحم هو الذى يصلها اذا قطعته ، ويحسن اليها اذا أساءت اليه ، ويحلم بها اذا جهلت عليه ، مصداقا لقول رسول الله ﷺ : «ليس الواصل بالمكافىء ، ولكن الواصل الذى اذا قطعت رحمه وصلها» ومعنى المكافىء: هو من يعطى نظير ما أخذ لا يسمى واصلا بل الواصل هو من يعطى من قطعه ، لحديث «ثلاثة من مكارم الأخلاق عند الله: أن تعفو عمن ظلمك ، وتعطى من حرمك ، وتصل من قطعك».

وعن ابى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال «ان الرحم شجنة من الرحمن فقال الله: من وصلك وصلته ، ومن قطعك قطعته» رواه البخارى والترمذى.

ماذا قال الله تعالى للرحم عندما استعاذت به من القطيعة؟

انه مشهد رهيب يصوره لنا النبى ﷺ فى كلمات كلها اعجاز وبيان.

فلننصت بآذان القلوب الى ما نطق به حبيب علام الغيوب:

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «ان الله خلق الخلق حتى اذا فرغ من خلقه قالت الرحم هذا مقام العائذ بك من القطيعة. قال نعم أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى يا رب ، فهو لك. قال رسول الله ﷺ فاقرأوا ان شئتم (فهل عسيتم أن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم. أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم)» رواه الشيخان.

كيف يعامل الانسان المسلم رحمه اذا جفت وغلظت؟

أيقابل ذلك بمثله أم ماذا؟

وهذه ظاهرة تفشت بين الناس.

يجيب عن هذا السؤال سيد الخلق ، وحبيب الحق محمد ﷺ:

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رجلا قال يا رسول الله ان لى قرابة أصلهم ويقطعونى ، وأحسن اليهم ويسيئون الى ، واحلم عنهم ويجهلون على. فقال: «لئن كنت كما قلت فكأنما تسفهم الملّ ، ولا

يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك».

ومعنى الملل: الرماد الحار ، تشبيه بما يلحقهم من الألم بما ينال آكل الرماد الحار لاساءتهم الى من أحسن اليهم.

ماذا تقـول الرحم؟

أنها تقول عجبا ، وتنطق عدلا.

عن عائشة رضى الله عنها عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «الرحم معلقة بالعرش تقول: من وصلنى وصله الله ، ومن قطعنى قطعه الله» رواه مسلم.

ومعنى معلقة بالعرش: أى تستجير بربها.

ما مصير قاطع الرحم يوم القيامة؟.

انه مصير مؤسف ومحزن ، يدعو الى الأسى العميق.

عن جبير بن مطعم رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «لا يدخل الجنة قاطع رحم».

ما جزاء من تسبب فى لعن والديه؟

انه عمل من أكبر الكبائر.

اذا كان هذا حال المتسبب فكيف بمن يلعنهما مباشرة؟

لا شـــك أنه أشنع وأبغض.

فعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: «ان من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه. قيل يا رسول الله وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه». رواهما الأربعة.

ومعنى أن يسب الرجل والديه ، أى يتسبب فى سبهما. وانما كان سبهما من أكبر الكبائر لأنه عقوق واساءة وكفران لحقهما الذى هو الاعظم والاكبار وتمام الاحسان.

ان عناية الله تعالى بالرحم تتجلى فى أوضح صورة عندما يقول مولانا فى الحديث القدسى الشريف: «أنا الله وأنا الرحمن ، خلقت الرحم ، وشققت لها اسما من اسمى ، فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها بتته» رواه الترمذى وأبو داود.

ومعنى بتته: أى قطعته.

وهذه ثمرات طيبة يبينها لنا سيدنا محمد ﷺ فى قوله : «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم ، فان صلة الرحم محبة فى الأهل ، مثراه فى المال ، منسأة فى الآثر» رواه الترمذى وأحمد والحاكم.

فصلة الرحم توجب محبة الأهل ، وسعة الرزق ، وطول العمر.

إنســانيات إســلامية

ما من يوم ينشق فجره الا ويزداد الاسلام عظمة على عظمة ، ونورا على نور.

فها هى ذى تعاليمه تطالعنا بأضوائها الكاشفة ، كلما أظلمت جنبات الحياة ، وأدلهمت خطوبها.

ففى الوقت الذى تضرب فيه التفرقة العنصرية فى جذور الأرض تريد أن تفسد نباتها وماءها وهواءها ، نجد الاسلام يضىء ويزدهر ، وتشرق أنوراه ، فيؤكد على حسن معاملة الأتباع والخدم. وليس فى ذلك أدنى ريب.

فالاسلام هو الذى جعل من عباد الحجر قادة للبشر ، ومن رعاة الغنم زعماء للأمم ، ومن المسضعفين سادة ، ومن العبيد أساتذة وقادة.

واليك ما نطقت به السنة المطهرة فى هذا المجال.

اقرأه ثم ارجع البصر فيه هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين فى معانيه ، وغص فى أعماقه ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير.

عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت رضى الله عنهم قال:

«خرجت أنا وأبى نطلب العلم فى هذا الحى من الأنصار قبل أن يهلكوا ، فكان أول من لقينا أبا اليسر صاحب رسول الله ﷺ ومعه غلام له معه ضمامة من صحف ، وعلى أبى اليسر بردة ومعافرى ، وعلى غلامه بردة ومعافرى ، فقلت له أنا: يا عمى لو أنك أخذت بردة غلامك وأعطيته معافريك وأخذت معافريه وأعطيته بردتك فكان عليك حلة وعليه حلة. فمسح رأسى وقال اللهم بارك فيك يا ابن أخى ، بصر عيناى هاتان ، وسمع أذناى هاتان ، ووعاه قلبى هذا ، وأشار الى مناط قلبه رسول الله ﷺ وهو يقول: أطعموهم مما تأكلون ، والبسوهم مما تلبسون وكان أن أعطيته من متاع الدنيا أهون على من أن يأخذ من حسناتى يوم القيامة». رواه مسلم مطولا فى قصة لأبى اليسر.

وعن أبى مسعود رضى الله عنه قال: كنت اضرب غلاما لى فسمعت صوتا من خلفي: اعلم أبا مسعود مرتين: لله أقدر عليك منك عليه. فالتفت فاذا هو النبى ﷺ . فقلت يا رسول الله هو حر لوجه الله. قال: اما لو لم تفعل للمستك النار».

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «من قذف مملوكه وهو بريء مما قال جلد له يوم القيامة حدا».

ثم استمع الى هذا الحياء ، وتلك السماحة من أشرف فم وأطهره ، كيف يجيب على سؤال وجه اليه بهذا الخلق الرفيع.

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: جاء رجل الى النبى ﷺ فقال يا رسول الله كم نعفو عن الخادم؟ فصمت ، فأعاد الكلام فصمت ، فلما كان فى الثالثة قال : «فى كل يوم سبعين مرة» روى هذه الثلاثة أبو داود والترمذى.

حقــوق وواجــبــات

أقام الأسـلام ميزان العدالة فى شتى مسالك الحياة. وقد استقام الميزان له لأنه يقوم على الحق والعدل. وها هو ذا الميزان ينظم العلاقة بين المالك والمملوك ، فى حديث جامع مانع لسيد البشرية محمد ﷺ .

عن أبى ذر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «من لاءمكم من مملوكيكم فأطعموه مما تأكلون واكسوه مما تكتسون. ومن لم يلائمكم منهم فبيعوه ولا تعذبوا خلق الله تعالى».

وعن رافع بن مكيث رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «حسن الملكة يمن ، وسوء الخلق شؤم» رواهما أبو داود. حسن الملكة

بفتحات : الصنيع مع الأتباع يمن وبركة ، لأنه إذا أحسن اليهم أحبوه وأخلصوا له وأتقنوا أعمالهم فنما ماله وحسن حاله بخلاف الحمق معهم فانه تعب وخسران ، وربما أدى الى الهلاك لحديث الترمذى «لا يدخل الجنة سيء الملكة».

وعن جابر رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال «ثلاث من كن فيه ستر الله عليه كنفه ، وأدخله جنته: رفق بالضعيف ، وشفقة على الوالدين ، واحسان الى المملوك».

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال «اذا ضرب أحدكم خادمه فذكر الله فارفعوا أيديكم» رواه الترمذى.

ومعنى قوله ﷺ : فذكر الله أى ذكره سبحانه مستجيرا به كقوله اتركنى بالله ، كفى بالله ، فارفعوا أيديكم اجلالا لاسم الله تعالى.

وعن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: «ثلاثة على كثبان المسك يوم القيامة: عبد أدى حق الله وحق مواليه ، ورجل أم قوما وهم به راضون ، ورجل ينادى بالصلوات الخمس فى كل يوم وليلة» رواه الترمذى.

الرحمة بالأرامل واليتامى

وتمتد رحمة الاسلام لتبسط أجنحتها على كل الضعفاء وعلى رأس هؤلاء الأرامل واليتامى.

فكم طوى البؤس نفوسا ، لو رعت منبتا خصيبا ، وتنسمت نسيم الحياة ، لكانت من خير العباد ، وأنقاهم معدنا وأعظمهم نفعا.

والآن مع سيد اليتامى ، الذى قال له ربه (ألم يجدك يتيما فآوى).

هذه نعمة ، ولكل نعمة شكر ، فما شكر هذه النعمة؟

قال له: (فأما اليتيم فلا تقهر).

والان مع أقوال تفيض رحمة بهذا الفريق من اليتامى والأرامل.

عن سهل بن سعد رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا ، وقال بأصبعيه السبابة والوسطى» رواه الأربعة.

ولمسلم «كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين فى الجنة ، وأشار بالسبابة والوسطى».

عن عوف بن مالك الأشجعى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «أنا وامرأة سفعاء الخدين كهاتين يوم القيامة ، وأومأ بالوسطى والسبابة ، امرأة آمت من زوجها ذات منصب وجمال حبست نفسها على يتاماها حتى بانوا أو ماتوا» رواه أبو داود.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: «من قبض يتيما من بين مسلمين الى طعامه وشرابه أدخله الله الجنة البتة الا أن يعمل ذنبا لا يغفر له» رواه الترمذى.

وعن صفوان بن سليم رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله ، أو كالذى يصوم النهار ويقوم الليل». رواه الشيخان والترمذى.

الإسلام وحقوق الجار

شملت حسنات الاسلام كل شىء.

ففى كل موقع ترى الأثر الجميل ، والخلق الرفيع لمعاملات الاسلام. وهو اذ يدعو الى الفضيلة بكل قوة ، ويحذر من الرذيلة بكل وسيلة ، تراه يقف موقفا عجيبا ، وسر العجب فيه أنه لم ينس أحدا الا وبين ما عليه من الواجبات ، وما له من الحقوق.

وها هو ذا يحدثنا عن الجار ، بما له وما عليه.

قال ربنا تبارك وتعالى (وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم).

فماذا قال نبى الرحمة ﷺ عن الجار ، فى كلمة موجزة لكنها معجزة ، وفى مبنى وجيز لكنه عزيز يقول: «ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه». رواه الأربعة.

ويراعى الاسلام العدالة فى أجلى معانيها ، بل ولو كانت قيد شعرة (ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما).

(ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين).

وهذه عدالته مع الجيران:

قالت عائشة رضى الله عنها يا رسول الله ان لى جارين فالى أيهما أهدى؟ قال «الى أقربهما منك بابا» رواه البخارى وأبو داود.

ثم تأمل معى ما هذا الوعيد الشديد ، وما هذا التحذير الرهيب الذى تكاد تنخلع له القلوب ، وتنفطر من هوله الأفئدة. من أجل

من؟ من أجل الجار.

اسمع كيف استعمل الرسول ﷺ هذا الأسلوب الذى بعث على الاستفسار بكل شوق ونهم.

عن أبى شريح رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، قيل: من يا رسول الله؟ قال: الذى لا يأمن جاره بوائقه» رواه البخارى ومسلم ولفظه «لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه» صدق من سماك الرءوف الرحيم يا رسول الله ، يا علم الهدى ، يا واسع الندى.

وقد صدق أمير الشعراء ، إذ يقول فيك يا أمير الأنبياء:

يا من له الأخلاق ما تهوى العلا
منها وما يتعشق الكبراء
زانك فى الخلق العظيم شمائل
يغرى بهن ويولع الكرماء
فاذا سخوت بلغت بالجود المدى
وفعلت مالا تفعل الأنواء
واذا عفوت فقادرا ومقدرا
لا يستهين بعفوك الجهلاء

واذا رحمت فأنت أم أو أب
هذان فى الدنيا هما الرحماء
واذا خطبت فللمنابر هـزة
تعرو الندى وللقلوب بكاء
وإذا أخذت العهد أو أعطيته
فجميع عهدك ذمة ووفاء
واذا غضبت فانما هى غضبة
للحق لا ضغن ولا شحناء
لو أن انسانا تخير ملـة
ما اختار الا دينك الفقراء
المصلحون أصابع جمعت يدا
هى أنت بل انت اليد البيضاء

تأمل يا أخا الاسلام كرمه مع الجيران ، إذ يقول لأبى ذر رضى الله عنه: «اذا طبخت مرقةفأكثر ماءها وتعاهد جيرانك» رواه مسلم.

وذبح فى بيت عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما شاة ، فقال: أهديتم لجارى اليهودى ، فانى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه» رواه أبو

داود والترمذى.

وكما عنى الاسلام بأداء الحقوق الى الجيران ، أيا كان مذهبه ، فانه فى نفس الوقت حذر تحذيرا بعيد المدى عن أذى الجار ، اذ أن أذاه تضاعف عليه العقوبة.

فاسمع معى الى ما نطق به رسول الله ﷺ فى حل هذه المشكلة المتعلقة بأذى أحد الجيران لجاره:

جاء رجل الى النبى ﷺ يشكو جاره قال: «اذهب فاصبر. فأتاه مرتين أو ثلاثا فقال: اذهب فاطرح متاعك فى الطريق ، فطرح متاعه فى الطريق ، فجعل الناس يسألونه فيخبرهم خبره فيلعنونه ، فعل الله به ، وفعل وفعل ، فجاء اليه جاره فقال: ارجع لا ترى منى شيئا تكرهه» رواه أبو داود.

أو ما سمعت الى ما رواه الامام الترمذى رضى الله عنه «خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه ، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره».

حق المسلم على المسلم

وتتسع بنا دائرة التربية الاسلامية ، فتنتقل الأحاديث النبوية

الشريفة من حق الجار على جاره ، الى حق المسلم على أخيه المسلم.

فاذا ما عرفت الحقوق وتبينت الواجبات ، وضعت الأمور فى نصابها ، وسميت الأشياء بأسمائها ، وثبتت النقاط فى حروفها ، وهنا لا تزل قدم بعد ثبوتها ، ويسير موكب الحياة على خط مستقيم ، لا ترى فيه عوجا ولا التواء لأنه اتباع لهدى الله. وهذه سنة محكمة لا تختلف ولا تتخلف من يوم هبط آدم وحواء الى هذا الكوكب الأرضى قال (اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فاما يأتينكم منى هدى ، فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى. ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى. قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا. قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى. وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى).

فماذا قال نبى الهدى وواسع الندى ، عن حقوق المسلم على أخيه المسلم؟.

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال «حق المسلم على المست ست ، قيل ما هن يا رسول الله؟ قال: إذا لقيته فسلم عليه ، واذا دعاك فأجبه ، واذا استنصحك فانصح له ، واذا

عطس فحمد الله فشمته ، واذا مرض فعده ، واذا مات فاتبعه ، رواه الخمسة.

الإســلام ديــن الرحمــة

وهل تكون الحياة حياة اذا جف معينها من الرحمة؟ وهل تستقيم سبلها اذا أصيب أهلها بقسوة العاطفة وغفوة الضمير ، وتحول الناس الى ذوى أكباد غليظة؟ انها عندئذ يكون بطن الأرض أولى بأهلها من ظهرها.

وها هو ذا سيدنا رسول الله ﷺ يحدثنا عن رحمة الله بخلقه.

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا وأنزل فى الأرض جزءا واحدا ، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق ، حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه» رواه الشيخان.

وعن جرير بن عبد الله رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «من لا يرحم لا يرحم» رواه الشيخان والترمذى.

وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال:

«الراحمون يرحمهم الرحمن. ارحموا أهل الأرض يرحمك من فى السماء».

وقال أبو هريرة رضى الله عنه: سمعت أبا القاسم ﷺ الصادق المصدق صاحب هذه الحجرة يقول «لا تنزع الرحمة الا من شقى» رواه أبو داود والترمذى.

وجاء شيخ كبير يريد النبى ﷺ ، فأبطأ القوم عنه ان يوسعوا له ، فقال رسول الله ﷺ : «ليس منا من لم يرحم صغيرنا ، ويوقر كبيرنا» رواه الترمذى وأبو داود.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال «ليس منا من لم يرحم صغيرنا ، ويوقر كبيرنا ، ويأمر بالمعروف ، وينه عن المنكر». رواه الترمذى.

وعن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «ما أكرم شاب شيخا لسنه الا قيض الله له من يكرمه عند سنه» رواه الترمذى.

وعن النعمان بن بشير رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» رواه الشيخان.

٩

وعن أبى موسى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ، وشبك بين أصابعه» رواه الشيخان والترمذى.

وكان أصحاب النبى ﷺ فى سفر معه ، فأخذ بعضهم من أخيه حبلا ، وهو نائم ، فاستيقظ ففزع ، فقال رسول الله ﷺ «لا يحل لمسلم أن يروع مسلما» رواه أبو داود فى المزاح بسند صالح.

سيدى يا رسول الله .. صدق من سماك الرءوف الرحيم ، فأنت الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة. واسمح لى بأن أقف وقفة امام بابك ، لأنقل هذه الصورة الرائعة من الرحمة التى شملت كل المخلوقات ، حتى ما قد يكون منها مؤذيا.

رجل يدخل الجنة بعمل أداه وهو فى باب الرحمة يسقى كلبا ثم يشكر الله له صنيعه ، ويغفر له.

لنستمع الى أبى هريرة رضى الله عنه يروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئرا فنزل فيها فشرب ثم خرج ، فاذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ بى. فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب فشكر الله

له فغفر له. قالوا يا رسول الله: وان لنا فى البهائم اجرا؟ فقال: نعم فى كل ذات كبد رطبة أجر» رواه الشيخان.

وشملت رحمته عالم الطير والحشرات:

فعن عبد الله رضى الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر ، فانطلقت لحاجتى فرأيت حمرة معها فرخان فأخذت فرخيها فجاءت الحمرة فجعلت تعرش ، فجاء النبى ﷺ فقال «من فجع هذه بولدها ، ردوا ولدها اليها. ورأى قرية نمل قد حرقناها ، فقال: من حرق هذه؟ قلنا: نحن. قال انه لا ينبغى أن يعذب بالنار الا رب النار» رواه أبو داود ، ومعنى «حمرة» نوع من العصافير.

الوعيد الشديد للظالمين

وبعد ما أفاضت الأحاديث النبوية الشريفة فى باب الرحمة ، وأشرقت بنور الاسلام فى مجالها الرحيب ورحابها المقدسة ، يقف بنا الرسول ﷺ أمام قضية من قضايا الحياة الأساسية. انها قضية العدل.

وهل يتحقق العدل الا اذا رفع الظلم؟.

نعم. ان العدل والحق قرينان ، اذا رفع أحدهما رفع الآخر.

وان الظلم والباطل قرينان ، اذا وجد أحدهما وجد الآخر.

فهيا بنا الى رحاب رسول الله ﷺ يحدثنا حديث كله حق وصدق ، لا مراء فيه ، ولا كذب يعتريه.

يقول الله تبارك وتعالى: (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار) صدق الله العظيم.

وقد روى عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: «الظلم ظلمات يوم القيامة» (رواه الشيخان والترمذى).

وعنه عن النبى ﷺ قال «من أخذ من الأرض شيئا بغير حق خسف به يوم القيامة الى سبع أرضين».

وفى رواية «من أخذ شبرا من الأرض ظلما فانه يطوقه يوم القيامة من سبع أرضين» رواه الشيخان وأحمد.

وهذا ارشاد نبوى كريم ، وتوجيه اسلامى رائع من رسول الله ﷺ ، يدعو فيه من حمل ظلما أن يتحلل ، ويؤدى الحقوق قبل أن تبلغ الروح الحلقوم ، وتصل الى التراقى قبل المساق الى الله ، حيث لا عودة الا يوم الحساب.

كان مالك بن دينار رضى الله عنه اذا حاولت نفسه أن تزين له السوء ، كان يذهب الى مقبرة مهجورة ، وينام بها قليلا ، ثم يهب قائما مذعورا ينفض التراب عنه ، وهو يقرأ قوله تعالى: (رب

ارجعون. لعلى أعمل صالحا فيما تركت) ثم يقول لنفسه: يا مالك لقد رجعت فاعمل قبل أن تموت فلا ترجع (قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال) (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون).

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال «من كانت له مظلمة لأحد من عرضه أو شىء فليتحلله منه اليوم قبل الا يكون دينار ولا درهم ، ان كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وان لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه» رواه البخارى.

وعن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يسلمه. من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة» رواه الأربعة.

وعن جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا الظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فان الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم ، رواه

مسلم.

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «أتدرون ما المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، فقال: أن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى قد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته فان فنيت حسناته قبل ان يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار».

ماذا قال رسولنا العظيم ﷺ عن العدالة الالهية المطلقة؟.

لقد قال عجبا ، تذهل له الألباب.

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال «لتؤدن الحقوق الى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء».

والجلحاء: هى الشاة التى لا قرن لها ــ رواهما مسلم والترمذى.

وتأمل معى مدى حرص الاسلام على حفظ الحقوق والنهى الشديد عن العبث بها.

فى عبارة موجزة يلخص الرسول ﷺ هذا المعنى ، وفى حوار دقيق يضع النقاط على الحروف فى حديث شريف نصه:

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: «جاء رجل الى النبى ﷺ

فقال يا رسول الله: أرأيت ان جاء رجل يريد أخذ مالى؟ قال: فلا تعطه مالك. قال: أرأيت ان قاتلنى؟ قال: قاتله. قال: أرأيت ان قتلنى: قال: فأنت شهيد. قال: أرأيت ان قتلته؟ قال: هو فى النار» رواه مسلم فى الايمان.

واعلم يا أخا الاسلام ان من الذنوب ذنوبا يعجل الله لصاحبها الانتقام فى الدنيا مع ما أعده له من سوء العذاب يوم القيامة ، مصداقا لقوله جل شأنه (ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى. قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا. قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى).

من هذه الذنوب ما جاء فى حديث رسول الله ﷺ :

عن أبى بكر رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله تعالى لصاحبه العقوبة فى الدنيا مع ما يدخر له فى الآخرة مثل البغى وقطيعة الرحم» رواه أبو داود والترمذى.

وانظر الى عدالة الاسلام وقد أظلت العالم أجمع باختلاف ملله ونحله ، وكيف نهى عن تعذيب الآدميين ، بل وعن تعذيب المخلوقات التى تحس كما نحس ، وتتألم كما نتألم ، وتبكى بغير دموع ، وتتوجع ولا تكاد تبين.

واليك هذا المشهد الجليل:

مر هشام بن حكيم رضى الله عنهما بالشام على أناس وقد أقيموا فى الشمس ، وصب على رؤوسهم الزيت. فقال ما هذا؟ قيل: يعذبون فى الخراج. فقال هشام: أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: «ان الله يعذب الذين يعذبون الناس فى الدنيا» رواه مسلم.

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «دخلت امرأة النار من جراء هرة لها أو هر ربطتها فلا هى اطعمتها ولا هى أرسلتها ترمرم من خشاش الأرض حتى ماتت هزلا» رواه الشيخان.

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «من أشار الى أخيه بحديدة فان الملائكة تلعنه حتى يدعه ، وان كان أخاه لأبيه وأمه» رواه مسلم والترمذى.

وعنه عن النبى ﷺ قال: «لا يشر أحدكم إلى أخيه بالسلام فانه لا يدرى أحدكم لعل الشيطان ينزع فى يده فيقع فى حفرة من النار».

ودخل عبيد الله بن زياد على معقل بن يسار رضى الله عنهما فى مرضه الذى مات فيه فسأله عبيد الله فقال: «لو علمت أن لى حياة ما حدثتك. انى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد

يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته الا حرم الله عليه الجنة».

وعنه عن النبى ﷺ قال: «من خبب زوجة امرىء أو مملوكه فليس منا» رواه أبو داود والنسائى.

فمن خبب: أى أفسد زوجة على زوجها أو عبدا على سيده ، أو ولدا على والده مثلا ، فليس على دين محمد ﷺ ، لأنه افساد وظلم لخلق الله تعالى.

وهذا ارشاد نبوى كريم ، يعطى النفس قوة واستقلالا ، ويبنى الشخصية على الايجابية النافعة. يبنيها على الاحسان ، ويجنبها الظلم والعدوان.

عن حذيفة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تكونوا امعة تقولون أن أحسن الناس أحسنا ، وان ظلموا ظلمنا ، ولكن وطنوا أنفسكم ، أن أحسن الناس أن تحسنوا ، وأن أساءوا فلا تظلموا».

وعن أبى صرمة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «من ضار ضار الله به ومن شاق شق الله عليه».

وعن ابى بكر رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «ملعون من

ضار مؤمنا أو مكر به» رواه الترمذى.

وعن عبد الله بن حبش رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «من قطع سدرة صوب الله رأسه فى النار» رواه أبو داود والنسائى.

أظلم الناس من يظلم نفسه

وهكذا تمضى بنا مواكب الزحف المقدس ، تقرر المثل العليا والقيم الأخلاقية التى نطقت بها الأحاديث النبوية الشريفة ، لنصل الكلام عن الظلم فى عمومه ، الى نوع خاص منه ، لكنه نوع شنيع وشديد.

انه ظلم الانسان لنفسه.

وهل يظلم الانسان نفسه الا اذا كان سفيها لا يعرف لها قدرها؟

ورحم الله امرءا عرف قدر نفسه.

ومن حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه.

نعم ان الانسان قد يظلم نفسه بالاعتداء عليها فينتحر ، وقد يظلمها بفعل السيئات واقتراف المعاصى ، فينغمس فى ظلمات

المخالفات الشرعية ، ولو كان عاقلا مدركا بصير ما تنكب عن الجادة ، وما انحرف عن الصراط السوى ، وهو الذى يقرأ قول الحق سبحانه (فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى. ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى. قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا. قال: كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى. وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى).

واليك ما قاله الرسول ﷺ فى هذا الباب مفصلا وشاملا وواضحا:

عن الحسن رضى الله عنه حدثنا جندب بن عبد الله فى هذا المسجد وما نسينا منذ حدثنا ، وما نخشى أن يكون جندب كذب على النبى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ ، كان فيمن كان قبلكم رجل به جرح فجزع فأخذ سكينا فحز بها يده ، فما رقأ الدم حتى مات. قال الله تعالى: بادرنى عبدى بنفسه حرمت عليه الجنة» رواه البخارى فى آخر بدء الخلق.

ومنه النميمة :

قال الله تعالى: (همّاز مشاء بنميم. مناع للخير معتد أثيم).

وعن جابر رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «اذا حدث الرجل بالحديث ثم التفت فهى أمانة» رواه أبو داود والترمذى.

وعنه عن النبى ﷺ قال: «المجالس أو زنا أو أخذ مال بغير حق ، وجب افشاؤه دفعا للمفسدة ، ووجب تبليغ من يقصد بالسوء ليأخذ حذره.

وعن همام رضى الله عنه قال: كنا مع حذيفة فقيل له ان رجلا يرفع الحديث الى عثمان رضى الله عنه ، فقال له حذيفة رضى الله عنه: سمعت النبى ﷺ يقول «لا يدخل الجنة قتات».

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ان شر الناس ذو الوجهين ، الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه» رواهما الأربعة.

وعنه عن النبى ﷺ قال: «اياكم وسوء ذات البين فانها الحالقة» رواه الترمذى.

أى احذروا الافساد بين الناس فانه يذهب الدين كما تذهب الموسى الشعر أو المراد عداوة الناس وبغضهم.

وعن عبد الله رضى الله عنه قال ان محمد ﷺ قال «ألا أنبئكم ما العضه؟ هى النميمة: القالة بين الناس» رواه مسلم.

وعن عمار رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ«من كان

له وجهان فى الدنيا كان له يوم القيامة لسانان من نار» رواه أبو داود.

ومنه الغيبة:

ومن ظلم الانسان نفسه ، وهو أبشع أنواع الظلم ، أن يوقع نفسه فى هذا الوباء الخلقى ، وهو الغيبة. والغيبة هى ذكرك أخاك المسلم بما يكره ، ولو كان فيه ، الا اذا كان على جهة التعريف كقولك أتعرف فلانا؟ فيقول: لا ، فتقول: الأعمى أو الأعور أو الأعرج مثلا.

والغيبة حرام ، بل هى من الكبائر فى حق أهل الفضل الذين هم قدوة صالحة للناس ، فان غيبتهم تزهد الناس فى الأخذ عنهم.

قال الله تعالى: (ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله ان الله تواب رحيم). صدق الله العظيم.

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما الغيبة؟ قالوا الله ورسوله أعلم. قال: ذكرك أخاك بما يكره. قيل: أفرأيت ان كان فى أخى ما أقول؟ قال: ان كان فيه ما تقول فقد

اغتبته ، وان لم يكن فيه فقد بهته». رواه مسلم وأبو داود والترمذى. ومعنى بهته: أى رميته بالبهتان وهو الباطل.

وهذا صراط مستقيم سنه لنا سيدنا رسول الله ﷺ فى معاملة الناس حتى تظل النفوس فى صفاء ووفاء ووئام وسلام.

يقول ﷺ «لا يبلغنى أحد من أصحابى عن أحد شيئا ، فانى أحب أن أخرج اليكم وأنا سليم الصدر» رواهما بو داود والترمذى.

ويستفاد من هذا الحديث النهى عن الغيبة وعن استماعها ، فانها تغير القلب.

ومنه : «القارىء والسامع شريكان فى الآجر ، والمغتاب والسامع شريكان فى الاثم».

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «من أكبر الكبائر استطالة المرء فى عرض رجل مسلم بغير حق. ومن الكبائر السبتان بالسبة».

ومعنى الاستطالة: أى اطالة المرء لسانة فى حق أخيه.

ومعنى قوله ﷺ «ومن الكبائر السبتان بالسبة» كأن يقول شخص لآخر يا خبيث. فيرد عليه قائلا: يا خبيث يا لئيم.

ما هى الصورة التى عرضت أمام رسول الله ﷺ ليلة المعراج الذين يغتابون الناس ، يأكلون لحومهم؟.

انها صورة محزنة مؤسفة مقبضة للنفس تشمئز منها الضمائر الصافية.

اسمع اليه ﷺ وهو يقول:

«لما عرج بى مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوهم وصدورهم ، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون فى أعراضهم».

ولا تجوز الغيبة الا فى شخص فاسق مجاهر بالمعصية ، مكشوف الحال بالمخالفة لما جاء فى الاحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ.

فعن عائشة رضى الله عنها قالت: استأذن رجل على النبى ﷺ فقال «ائذنوا له بئس أخو العشيرة أو ابن العشيرة».

فلما دخل الآن له الكلام. قلت يا رسول الله قلت الذى قلت ثم ألنت له الكلام؟ قال: «أى عائشة ان شر الناس من تركه الناس ، أو ودعه الناس اتقاء فحشه» رواه الأربعة.

وعنها قالت: قال النبى ﷺ «ما أظن فلانا وفلانا يعرفان من ديننا شيئا» رواه البخارى.

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «كل أمتى معافى الا المجاهرين ، وان من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملا ثم يصبح وقد ستره الله فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه» رواه الشيخان.

وجاء أعرابى فأناخ راحلته ثم عقلها ، ثم دخل المسجد فصلى خلف النبى ﷺ ، ثم أتى راحلته فأطلقها ثم ركب ثم نادى: اللهم ارحمنى ومحمدا ولا تشرك فى رحمتنا أحدا. فقال رسول الله ﷺ : أتقولون هو أضل أم بعيره؟ ألم تسمعوا الى ما قالو قالوا: بلى» رواه الخمسة.

والمعنى أن النبى ﷺ جعله أضل من بعيره ، لأنه طلب الرحمة لنفسه وللنبى ﷺ دون خلق الله كلهم ، فقد تحجر رحمة الله التى وسعت كل شىء. وفى رواية: قال له رسول الله ﷺ : «لقد تحجرت واسعا يا أخا العرب».

التصـدق بالعـرض حســن

ومن أخلاقه ﷺ : السماحة والصفح الجميل ، والصبر الجميل ، والجميل الهجر قال تعالى: (فاصفح الصفح الجميل).

وقال جل شأنه (فاصبر صبرا جميلا).

وقال تبارك اسمه (واهجرهم هجرا جميلا).

ومن سماحته ﷺ: أنه أوصى بالتصدق بالعرض. ومعنى التصدق بالعرض أى الاحسان الى من أساء الى الانسان بأن شتمه أو ذكره بما يكره وهو غائب أى أذى اللسان.

ﷺ قال (أيعجز أحدكم أن يكون مثل أبى ضمضم؟ قالوا: ومن أبو ضمضم؟ قال: رجل فيمن كان قبلكم كان اذا أصبح قال: اللهم انى جعلت عرضى لمن شتمنى) رواه أبو داود.

وهناك أنواع من ظلم الانسان نفسه نلخصها فيما يلى:
فمنه ظــن الســوء والحقـد والحسـد.

يقول الله تبارك اسمه (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم ولا تجسسوا) صدق الله العظيم.

وهذا حديث جامع عن رسول الله ﷺ ، نهى فيه عن التلبس بأى منهى من هذه المنهيات.

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اياكم والظن فان الظن أكذب الحديث ، ولا تحسسوا ، ولا تجسسوا ، ولا تنافسوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله اخوانا» رواه الأربعة.

ومعنى التحسس: الاستماع لحديث القوم. والتجسس: البحث عن عوراتهم.

ومعنى التنافس والتحاسد واحد ، هو المسابقة على الدنيا حرصا عليها.

ومعنى ولا تباغضوا: أى لا تفعلوا ما يوجب البغض والتدابر.

ثم ينهى صلى الله عليه وسلم عن كبيرة تفشت فى المجتمع ، ألا وهى الحسد.

فما هو الحسد؟

انه تمنى زوال نعمة الله عن الغير.

ومن هنا جاء النهى قاطعا فى قوله ﷺ :
«اياكم والحسد ، فان الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ، أو قال: العشب» رواه أبو دواود وابن ماجه.

العشب : الكلأ الرطب. وهذا لان الحسد يفضى بصاحبه الى اغتياب المحسود ، فيزيد نعمة على نعمة ، ويزيد الحاسد خسرانا.

ويبين الرسول ﷺ خطر هذه الأمراض على المجتمع ، ويذكر البديل الشرعى فى حديث يفيض حكمة وعلما فيقول:
«دب اليكم داء الأمم قبلكم : الحسد والبغضاء هى الحالقة ، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين. والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، ألا أنبئكم بما يثبت ذاكم لكم: أفشوا السلام بينكم» رواه الترمذى فى الرقائق.
ومن الأمراض الاجتماعية الخطيرة التى يعد مرتكبها ظالما لنفسه: تتبع عورات العباد.

قال تعالى: (ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا).

ومن ثم جاء ذلك التحذير الصريح الواضح فى حديث رسول الله ﷺ.

فعن أبى برزة الأسلمى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الايمان قلبه ، لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم ، فانه من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه فى بيته» رواه أبو داود والترمذى ولفظه:

«صعد النبى ﷺ المنبر ، فنادى بصوت رفيع: يا معشر من أسلم بلسانه ولم يفض الايمان الى قلبه ، لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تتبعوا عوراتهم ، فانه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف رحله».

ونظر ابن عمر يوما الى الكعبة فقال: «ما أعظمك وأعظم حرمتك والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك».

فحرمة المؤمن أعظم حرمة عند الله من الكعبة ذات الحرمة الرفيعة ، والمكانة العظيمة ، والمزايا العديدة. فكيف تستباح حرمة المؤمن بعد هذا؟

نسأل الله التوفيق.

وأنظر الى الحكمة العلوية بعين عقلك ، والتى نظم الرسول ﷺ بها العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، والراعى والرعية ، وأنه يجب أن تقوم على حسن الصلة بينه وبينهم ، فيقول الرسول فى هذه الشئون الخطيرة كلاما غاليا ونافعا ومثمرا:

عن معاوية رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «انك ان اتبعت عورات الناس أفسدتهم ، أو كدت أن تفسدهم» فقال أبو داود: كلمة سمعها معاوية من النبى ﷺ نفعة الله بها.

وعن أبى امامة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: ان الأمير اذا ابتغى الريبة فى الناس أفسدهم.

وقيل لعبد الله رضى الله عنه: «هذا فلان تقطر لحيته خمرا ، فقال: أنا قد نهينا عن التجسس ، ولكن ان يظهر لنا شىء نأخذ به» روى هذه الثلاثة أبو داود.

ومن ظلم الانسان نفسه: الكبر والاختيال

الكبر والاختيال كبيرتان من كبائر الذنوب.

لذا ورد النهى عنهما فى كتاب الله تعالى صارما وحاسما.

قال تعالى فى سورة الاسراء : «ولا تمش فى الأرض مرحا انك لن

تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا».

قال تعالى فى سورة الاسراء: (ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا ان الله لا يحب كل مختال فخور. واقصد فى مشيك واغضض من صوتك ان انكر الأصوات لصوت الحمير).

وتأتى سورة القصص فتحدثنا عن اثنين من جبابرة البشر:

أولهما: فرعون ، الذى غره ملكه ، واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم الينا لا يرجعون.

وثانيهما: قارون ، الذى غره ماله ، فخرج على قومه فى زينته.

ثم تأتى الآية بعد توقيع الجزاء عليهما بالخسف والأغراق فتقول: (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا ، والعاقبة للمتقين. من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات الا ما كانوا يعملون).

وتأتى أحاديث رسول الله ﷺ تثنى على المتواضعين ، وتنذر المختالين المتكبرين قساة القلوب:

عن حارثة بن وهب رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضاعف ، لو أقسم على الله لأبره. ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جواظ متكبر». رواه

الشيخان والترمذى.

ومعنى الجواظ: الجموح المنوع للخير.

وجل جلال الله اذ يقول فى الحديث القدسى «الكبرياء ردائى ، والعظمة ازارى ، فمن نازعنى واحدا منهما قذفته فى النار» رواه أبو داود ومسلم.

واعلم يا أخى المسلم أن الكبرياء والعظمة صفتان مختصان بالله جل شأنه ، لا ينبغى لمخلوق أن يدعيهما ، كما أن رداء الشخص وازاره لا يشاركه فيهما أحد ، فمن زعم أنهما صفة له ألقاه الله فى النار ، لأنه تعدى حده من العبودية والتذلل والتواضع.

ولابن عساكر: «اياكم والكبر ، واياكم والحرص ، واياكم والحسد».

وهذا وعد ووعيد من رسول الله ﷺ جمعهما حديثه الذى قال فيه: «لا يدخل النار أحد فى قلبه مثقال حبة خردل من ايمان ، ولا يدخل الجنة أحد فى قلبه مثقال حبة خردل من كبرياء».

ما حقيقة الكبر؟

يعرف الرسول ﷺ الكبر فى كلمات موجزة ، لكنها فى

حقيقتها بليغة ومعبرة.

يقول عليه الصلاة والسلام: «لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر ، قال رجل: يا رسول الله: ان الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ، ونعله حسنا. قال: ان الله جميل يحب الجمال. الكبر: بطر الحق ، وغمط الناس» رواهما مسلم والترمذى.

أخى المسلم: أحذر أن تكون واحدا من هؤلاء الثلاثة الذين قال فيهم سيدنا رسول الله ﷺ : «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر اليهم ولهم عذاب أليم: شيخ زان ، وملك كذاب ، وعائل مستكبر» رواه مسلم.

كيف يحشر المتكبرون يوم القيامة وما جزاؤهم؟

يجيب عن هذا رسول الله ﷺ فيقول: «يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر فى صور الرجال ، يغشاهم الذل من كل مكان ، فيساقون الى سجن جهنم يسمى بولس ، تعلوهم نار الأنيار ، يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال» رواه الترمذى.

ومعنى بولس: أى شديد العذاب. ومعنى طينة الخبال: أى بدل من عصارة أهل النار ، وهى سائل القيح والصديد من أبدانهم.

ومن ظلم الانسان نفسه: السب والقذف

قال تعالى (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم. وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم. واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه هو السميع العليم).

أعلم يا أخى أن الركيزة الأولى التى قامت عليها دعوة الاسلام هى التى لخصها الحديث الشريف الذى قال فيه ﷺ : «انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

والأخلاق لا تعرف الشتم ولا السب ولا القذف ، انما تقوم على السماحة والعفو والصفح الجميل.

ومن أشد أنواع القذف والسب أن يرمى الانسان غيره بالكفر ، فتلك جناية لها خطرها على الأخلاق.

واذا كان ذلك كذلك فما جزاء من رمى غيره بالكفر؟

انها كلمات يجيب بها رسول الله ﷺ فى قوله: «أيما امرىء قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما ، ان كان كما قال ، والا

رجعت عليه». رواه الأربعة.

وعن أبى ذر رضى الله عنه أنه سمع النبى ﷺ يقول: «لا يرمى رجل رجلا بالفسوق ، ولا يرميه بالكفر ، الا ارتدت عليه ان لم يكن صاحبه كذلك». رواه الشيخان.

وعن عبد الله رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر» رواه الشيخان والترمذى.

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «المستبان ما قالا ، فعلى البادىء منهما ما لم يعتد المظلوم» رواه أبو داود ومسلم والترمذى.

وعنه عن النبى ﷺ قال: «اثنتان فى الناس هما بهما كفر: الطعن فى النسب ، والنياحة على الميت» رواه مسلم.

وعنه عن النبى ﷺ قال «اذا قال الرجل: هلك الناس فهو أهلكهم» رواه مسلم وأبو داود.

وعن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ «اذا مات صاحبكم فدعوه ولا تقعوا فيه» رواه أبو داود.

ومن ظلم الانسان نفسه: اللعن والفحش

كان من عادة اليهود اذا مروا برسول الله ﷺ أن يبدأوه قائلين: سام عليك يا محمد. فكانت أم المؤمنين عائشة ترد عليهم قائلة: وعليكم السام واللعنة أبناء القردة والخنازير. فيقول لها الرسول ﷺ مغضبا: «ان الله لا يحب الفحش ولا التفحش فى الكلام».

قالت يا رسول الله: أو ما سمعت ما يقولون؟ فيقول لها الرسول ﷺ: «لكن الله أمرنى بغير ذلك. وبم أمرك ربك؟ فقرأ عليها قول الله تعالى (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) أو ما علمت يا عائشة بما رددت عليهم؟ لقد قلت لهم: وعليكم».

هذا هو الأدب الجم ، والأسلوب الرفيع فى معاملة الخلق ، لا سيما شرارهم.

وقد روى الخمسة فى حديث جامع عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من حلف على ملة غير الاسلام فهو كما قال. وليس على ابن آدم نذر فيما لا يملك ومن قتل نفسه بشىء فى الدنيا عذب به يوم القيامة ، ومن لعن مؤمنا فهى كقتله. ومن قذف مؤمنا بكفر فهو كقتله».

كيف كان خلق رسول الله ﷺ

يحدثنا أنس رضى الله عنه فيقول: «لم يكن رسول الله ﷺ فاحشا ، ولا لعانا ، ولا سبابا. كان يقول عند المعتبة: ما له ترب جبينه». رواه البخارى.

ومعنى المعتبة: أى الغضب. وترب جبينه: أى لصق بالتراب ، بمعنى ذل.

أو ما علمت ما مصير اللعن وأصحابه فى الآخرة؟ أنه حرمان من نعم كبرى.

يقول صلوات الله وسلامه عليه «ان اللعانين لا يكونون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة». رواه مسلم وأبو داود.

وقد قيل لرسول الله ﷺ : أدع على المشركين. فقال: «انى لم أبعث لعانا ، وانما بعثت رحمة» رواه مسلم.

لقد بلغ من عظمة الاسلام فى تأديبه لأتباعه أن النهى عن اللعنة لم يكن قاصرا على لعن الانسان ، انما تجاوز ذلك الى غيره من المخلوقات التى تدرك ولا تعقل ، فقد ورد النهى عن لعنها هى الاخرى ، ومن لعنها أرتد اللعن عليه هو.

فليتق الله من سمع الى قول رسول الله ﷺ : «لا تلاعنوا بلعنة الله ، ولا بغضب الله ، ولا بالنار».

وفازعت الريح رجلا رداءه على عهد النبى ﷺ فلعنها ، فقال رسول الله ﷺ : «لا تلعنها فانها مأمورة ، وأنه من لعن شيئا ليس له بأهل رجعت اللعنة عليه». رواهما أبو داود والترمذى.

وعن أبى الدرداء رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «ان العبد اذا لعن شيئا صعدت اللعنة الى السماء فتغلق أبواب السماء دونها ، ثم تهبط الى الأرض فتغلق أبوابها دونها ، ثم تأخذ يمينا وشمالا ، فاذا لم تجد مساغا والا رجعت الى الذى لعن ، فان كان لذلك أهلا والا رجعت الى قائلها» رواه أبو داود.

وعن عبد الله عنه عن النبى ﷺ قال: «ليس المؤمن بالطعان ، ولا اللعان ، ولا الفاحش ، ولا البذىء» رواه الترمذى.

ومن ظلم الانسان نفسه: احتقار المسلم وهجره

هذه منهيات وحقوق وواجبات يلتزم بها كل مسلم يريد الله واليوم الآخر.

والحقيقة أن هذا الحديث قاموس اجتماعى ينظم العلاقة

الأخلاقية بين الأفراد وبين الجماعات.

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال «لا تحاسدوا ، ولا تناجشوا ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، ولا يبع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله اخوانا. المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يحقره. التقوى هاهنا — ويشير إلى صدره ثلاث مرات — بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم. كل المسلم على المسلم جرام: دمه ، وماله ، وعرضه» رواه الأربعة.

ومن خلق الأسلام الأصيلة: احترام المسلم لأخيه المسلم. فاذا كان الاحترام أمرا محببا ، فان الاحتقار رذيلة منهى عنها..

جاء فى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره» رواه مسلم وأحمد.

فمراد الحديث: الا يحتقر أحد أحدا لفقره وضعفه ، فربما كان عند الله من المقربين. فرب شخص أشعث ، أى وسخ الشعر والملابس ، يتقذره الناس ويطردونه ، ولكنه لو طلب من ربه شيئا لأجابه فى الحال.

واسمع يا أخى المسلم الى الآثار المترتبة على شحناء النفوس وبغضائها ، وقطيعة بعضها بعضا. انها آثار تكاد تزهق النفوس من

هولها.

قال ﷺ «تفتح أبواب الجنة يوم الأثنين ويوم الخميس ، فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئا ، الا رجلا كانت بينه وبين أخيه شحناء ، فيقال: انظروا هذين حتى يصطلحا ، أنظروا هذين حتى يصطلحا ، أنظروا هذين حتى يصطلحا» رواه مسلم وأبو داود والترمذى.

وعنه عن النبى ﷺ قال: «تعرض أعمال الناس فى كل جمعة مرتين: يوم الاثنين ، ويوم الخميس ، فيغفر لكل عبد مؤمن الا عبدا بينه وبين أخيه شحناء فيقال: اتركوا هذين حتى يفيئا» رواه مسلم.

وعن أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذى يبدأ بالسلام» رواه الأربعة.

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل لمؤمن أن يهجر مؤمنا فوق ثلاث ، فان مرت به ثلاث فليلقه فليسلم عليه ، فان رد عليه السلام فقد اشتركا فى الأجر ، وان لم يرد عليه فقد باء بالأثم ، وخرج المسلم من الهجرة».

وعنه عن النبى ﷺ قال «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق

ثلاث ، فمن هجر فوقها فمات دخل النار».

ومن ظلم الانسان نفسه: الجدل والمراء

عنى الاسلام عناية عظمى بالجانب التربوى بالانسان ، ليستقيم أمره ، ويسلك الصراط السوى فى حياته ، وينال السعادة الأخروية بعد وفاته.

ومما أدب به الاسلام الانسان المسلم ترك الجدل والمراء ، ففيه مضيعة للوقت وملهاة عن العبادة والعمل. والله تعالى اذا غضب على قوم فمن علامات غضبه أنهم يرزقون الجدل ويحرمون العمل. وماضل قوم بعد هدى الا كانت حياتهم ضياعا وفراغا رهيبا قاتلا.

ونظرة فى القرآن الكريم تعطينا درسا فى الحديث بيننا كيف نسأل ، وعن أى شيء نسأل؟

لقد سئل النبى ﷺ عن الأهلة ، وهى منازل القمر ، لكن السائل سأله عن حقيقتها من أى المعادن؟ من أى المواد؟ فجاءت الاجابة تعلم السائل عن أى شيء يسأل. قال تعالى (قل هى مواقيت للناس والحج) أى لا تسأل عن حقيقة الأهلة أو المادة التى خلقت منها ، فذاك سؤال لا جدوى منه ، انما اسأل عن منافعها

تأتك الاجابة ، هكذا قال الله تعالى: «يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج».

وسألوا رسول الله ﷺ : من أى شيء ينفقون؟ وهذا سؤال لا داعى له من حيث هو ، اذ أن النفقة جائزة من كل ما يعود على الناس بالنفع ، سواء أكان ذهبا أم فضة أم زروعا وثمارا ، أم ابلا أو بقرا أو غنما أو ركازا ــ فجاءت الاجابة تعلمهم كيف يسألون ، فبينت مصارف النفقة دون أن تقيم وزنا لأى شيء تخرج منه النفقة.

قال تعالى: (يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل ، وما تفعلوا من خير فان الله به عليم).

فانظر يا أخى كيف كان خلق رسول الله ، وكيف كانت سجاياه ﷺ.

عن السائب رضى الله عنه قال: أتيت النبى ﷺ فجعلوا يثنون على ويذكرونى فقال رسول الله ﷺ : (أنا أعلمكم به. قلت: صدقت بأبى أنت وأمى ، كنت شريكى فنعم الشريك ، كنت لا تدارى ولا تمارى) رواه أبو داود والنسائى.

ومعنى لا تمارى: أى لا تخالف ولا تمانع ، ولا تجادل ولا تخاصم ، فهو يصف النبى ﷺ بحسن الأخلاق والسهولة فى المعاملة.

وعن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: من ترك الكذب وهو باطل بنى له فى ربض الجنة ، ومن ترك المراء وهو محق بنى له فى وسطها ، ومن حسن خلقه بنى له فى أعلاها» رواه الترمذى وأبو داود ولفظه:

«أنا زعيم ببيت فى ربض الجنة لمن ترك المراء وان كان محقا ، وببيت فى وسط الجنة لمن ترك الكذب وان كان مازحا ، وببيت فى أعل الجنة لمن حسن خلقه».

وعن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: «لا تمار أخاك ولا تمازحه ، ولا تعده موعدة فتخلفه».

وعنه عن النبى ﷺ قال «كفى بك اثما مخاصما» رواهما الترمذى.

ومعنى زعيم: أى كفيل وضامن.

ومن ظلم الانسان نفسه: أن يكون بخيلا سىء الخلق

فالبخل وسوء الخلق رذيلتان تدمران المجتمع ، وتقوضان أركان الأمة. ولذا كان الكرم من صفات الله تعالى.

قال الله جل جلاله: (فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ، ومن شكر فانما يشكر لنفسه ، ومن كفر فان ربى غنى كريم).

وقد ألقى القرآن الكريم باللائمة الشديدة على أبناء القردة والخنازير ، الذين افتروا على الله كذبا فنعتوه بالبخل. تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

قال جل شأنه: (وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء).

وقد وجه الله هذا الخطاب الى الأمة المؤمنة ، يحثها على الكرم والبذل والعطاء والسخاء (يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون. وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى الى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين).

فماذا يكون الجواب؟.

وهل يستجيب الله لذلك المراوغ المخادع؟ كلا وألف لا.

أن الجواب حاسم وقاطع ، انه قوله جل شأنه: (ولن يؤخر الله نفسها اذا جاء أجلها ، والله خبير بما تعملون).

فيـــا أخـــا الإسلام:

اذا جادت الدنيا عليك فجد بها
على الناس واعلم أنها تتقلب
فلا الجود يفنيها اذا هى أقبلت
ولا البخل يبقيها اذا هى تذهب

استمع معى الى جوامع الكلم ينطق بها سيد البلغاء وأفصح الفصحاء محمد ﷺ فيقول: «لا يدخل الجنة خب ولا منان ولا بخيل».

وعن أبى سعيد رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «خصلتان لا تجتمعان فى مؤمن: البخل ، وسوء الخلق» رواهما الترمذى.

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «المؤمن غر كريم ، والفاجر خب لئيم» رواه الترمذى وأبو داود.

وعنه عن النبى ﷺ قال: «يتقارب الزمان ، وينقص العمل ، ويلقى الشح ويكثر الهرج. قالوا: وما الهرج؟ قال: «القتل القتل» رواه الثلاثة.

تحريم الكذب

أفضل الفضائل: الصدق ، وأرذل الرذائل: الكذب.

ولقد كان الرجل يأتى الى رسول الله ﷺ يشكو اليه ما يعانيه من المعاصى ويلتمس الوصية من الصادق المعصوم ، فيقول له المصطفى: «هل تعاهدنى على ترك الكذب»؟.

وكان لهذه الوصية الجامعة الوافية الكافية الشافية ، وقعها الطيب على ذوى النفوس والضمائر اليقظة ، فكان أحدهم اذا هم بفعل سيئة يسأل نفسه: فماذا تقول لرسول الله ﷺ اذا سألك وقال لك: هل عصيت اليوم ربك؟ ان قلت له: نعم ، فقد أغضبت الله ورسوله باقتراف المعاصى ، وان قلت له: لا ، فقد كذبت «والله لا أعصى».

ولقد قال الله جل شأنه: «انما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون».

وقال جل شأنه : «ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين. وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون».

وقال تبارك اسمه: «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين».

وقال عز من قائل: «من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا. ليجزى الله الصادقين بصدقهم».

وقال تبارك اسمه: «فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق اذ جاءه أليس فى جهنم مثوى للكافرين. والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون. لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين. ليكفر الله عنهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين. ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون. أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضلل الله فما له من هاد. ومن يهد الله فما له من مضل أليس الله بعزيز ذى انتقام».

وقال عز فى علاه: «ان المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين

والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات. والذاكرين الله كثيرا والذاكرات ، أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما».

وقد وردت فى التحذير من الكذب أحاديث صحيحة الاسناد صريحة النص ، نسوقها كما وردت:

عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده رضى الله عنهم عن النبى ﷺ قال: «ويل للذى يحدث فيكذب ليضحك به القوم ، ويل له ، ويل له» رواه أصحاب السنن بسند صحيح.

عن أبى هريرة رضى الله عن النبى ﷺ قال: «كفى بالمرء اثما أن يحدث بكل ما سمع» رواه أبو داود ومسلم.

ذلك لأن التكلم بكل ما يسمعه ذنب عظيم ، لأن الصدق فى الناس قليل.

عن سفيان بن أسيد رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثا هو لك به مصدق ، وأنت له به كذب» رواه أبو داود والامام احمد.

وعن عائشة رضى الله عنها قالت: «ما كان خلق أبغض الى رسول الله ﷺ من الكذب ، ولقد كان الرجل يحدث عند النبى ﷺ بالكذبة فما يزال فى نفسه حتى يعلم أنه قد أحدث منها توبة».

وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال: «اذا كذب العبد تباعد عنه الملك ميلا من نتن ما جاء به» رواهما الترمذى.

عن أم كلثوم بنت عقبة رضى الله عنها ، وكانت من المهاجرات الأول اللاتى بايعن النبى ﷺ ، أنها سمعت رسول الله ﷺ وهو يقول: «ليس الكذاب الذى يصلح بين الناس ويقول خيرا وينمى خيرا. قالت: ولم أسمع يرخص فى شىء مما يقول الناس كذب الا فى ثلاث: الحرب ، والاصلاح بين الناس ، وحديث الرجل امرأته ، وحديث المرأة زوجها» رواه الأربعة.

ولفظ أبى داود: «ما سمعت رسول الله ﷺ يرخص فى شىء من الكذب الا فى ثلاث: كان يقول لا أعده كاذبا: الرجل يصلح بين الناس ، يقول القول ولا يريد به الا الاصلاح ، والرجل يقول فى الحرب ، والرجل يحدث امرأته ، والمرأة تحدث زوجها».

وانما جاز الكذب ــ وهو حرام ــ فى هذه الأمور لأهميتها فى

الحرب. فللقائد أن يكذب فى الخطة التى ينويها لئلا يتصل خبرهم بالأعداء. ويقاس عليه كل حاكم ما دامت وجهته الخير والاصلاح لعباد الله تعالى.

والذى يصلح بين المتخاصمين: فردين أو قبيلتين أو أمتين ، له أن يقول ما يشاء فيما يراه طريقا للتوفيق بينهما.

وحديث الزوج لزوجته: وكذا حديثها لزوجها ، فله أن يكذب معها أحيانا كقوله لها: أنت أحب الناس إلى إذا قالت له: انك تحب ضرتى ، أو أهلك أكثر منى ، وكذا اذا طلبت منه شيئا ليس ميسورا له ، فانه يعدها مسايرة وارضاء لها.

ويقول العالم الجليل الشيخ منصور على ناصف:

انما جاز الكذب فى هذه الأمور لأهميتها. فالجيش حصن الأمة ، فاذا انكسر ذهبت الأمة وضاعت. والخصام والشقاق أس كل مصيبة وبلاء. والوفاق أصل كل خير وفلاح. والأسرة الزوجية هى الأفراد التى تتكون منها الأمة ، فإذا نشأت الأولاد بين أبوين لا نزاع بينهما ، بل يتبادلان الاجلال والمودة ، فأنها تنشأ غالبا ذرية طيبة ونباتا حسنا يكون دعامة قوية فى أمة تعيش فى هناء وسعادة.

وهل يقاس على هذه الأمور فى جواز الكذب شدائد قد تعرض للانسان فى دنياه كظالم يريد التعدى على نفس أو عرض أو مال وأمكن الخلاص منه بالكذب الظاهر؟ نعم ، لأن الحامل على الكذب فى الحديث الضرورة ، وهذه أقصاها ، فهى داخلة فى القاعدة المشهورة: الضرورات تبيح المحظورات والله أعلم».

ومن ظلم الانسان نفسه: النفاق

النفاق مرض من أخطر الأمراض الاجتماعية. اذا تفشى فى أفراد المجتمع دمره ، ودمدم عليه ، وسواه بالتراب.

وقد عرفه الباحثون بأنه اظهار الانسان غير ما يضمر. وأخطر أنواعه نفاق العقيدة ، وهو أن يظهر الانسان الاسلام ويضمر الكفر. يليه نفاق العبادة ، وهو أن يقصد الانسان بعبادته غير وجه الله. انما يكون هدفه الرياء والسمعة.

وثالث أنواع النفاق: نفاق المعاملة ، وهو اتصاف الانسان بالكذب عند الحديث ، والخيانة عند الأمانة ، والغدر عند العهد ، والخلف عند الوعد ، والفجور عند الخصومة.

ولما كان هذا الوباء له خطره وعواقبه الأليمة ــ وجدنا من باب بيان الحق وابطال الباطل ان نفصل الكلام فيه تفصيلا ، لا يدع عذرا لمعتذر ، بل يقطع الطريق على كل مراء (يعبد الله على حرف ، فان أصابه خير اطمأن به ، وان أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين).

ويقابل النفاق فضيلة الأخلاص. فالأخلاص سر من أسرار الله يستودعه قلب من يحب من عباده ، لا يطلع عليه ملك فيكتبه ، ولا شيطان فيفسده.

واذا كان النفاق اظهار ما لا يبطن ، فان الاخلاص أن يقصد الانسان بعمله وجه الله تعالى وحده.

وفى القرآن شجرتان يقول الله فى احداهما:

(ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تأتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون).

هذه شجرة الاخلاص فى نقائها وصفائها وثباتها.

ويقول الله تعالى فى الشجرة الأخرى:

(ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار).

انها شجرة النفاق والخبث والرياء والشرك. أعاذنا الله من كل هذا البلاء.

ولنأخذ بعد الآن فى بيان نفاق العقيدة: انه أخطر أنواع النفاق: قلب يضمر الكفر والشرك ، ولسان يهتف بالتوحيد والتهليل.

ولخطورة هذا النوع فاننا نرى ذلك متمثلا فى مطلع سورة البقرة.

فقد حدثنا مولانا جل شأنه عن ثلاث فرق من الناس: فرقة المؤمنين ، وتحدث عنها القرآن فى أربع آيات ، وفرقة الكافرين ، وتحدث عنها الكتاب العزيز فى آيتين ، وفرقه المنافقين ــ نفاق العقيدة ــ وتحدث عنها مولانا سبحانه وتعالى فى ثلاث عشرة آية.

وكم أكون مبتهجا عندما أسجل هذا المشهد القرآنى العظيم من سورة البقرة ليمعن القارىء الكريم نظره فى جوانبه.

قال الله جل شأنه:

(ألم. ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين. الذين يؤمنون

بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون. والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون. أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون. ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون. ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم. ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين. يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون. فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون. واذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا انما نحن مصلحون. ألا أنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون. واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون. واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا إنا معكم انما نحن مستهزءون. الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون. أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين. مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون. صم بكم عمى فهم لا يرجعون. أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين. يكاد البرق يخطف أبصارهم

كلما أضاء لهما مشوا فيه واذا أظلم عليهم قاموا ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير).

صدق الله العظيم.

فتأمل معى هذه الأقسام الثلاثة ، تجدها قد احتوت على ثلاثة نماذج من البشر:

النموذج الأول: آمن بالغيب ، وأقام الصلاة ، وأنفق مما رزقه الله ، وآمن بما أنزل الى رسول الله ﷺ ، وما أنزل من قبله من الكتب الصحيحة ، وأيقن بأن هناك بعد الموت بعثا وحشرا ونشرا ، وميزانا وكتبا ، وصراطا ، وجنة ، ونارا. ووصل ايمانه درجة اليقين الذى لا يخالطه ظلال من الشك ، ولا يعتريه غموض ولا لبس. هؤلاء الناس لهم فى القرآن هدى وارشاد ، وهداية الى سواء الصراط.

وهم أصحاب القلوب السليمة: (ولا تخزنى يوم يبعثون. يوم لا ينفع مال ولا بنون. الا من أتى الله بقلب سليم).

وهم السابقون السابقون فى جنات النعيم.

وهم المقربون ، وهم على سرر موضونة ، متكئين عليها متقابلين.

وهم الذين يطوف عليهم ولدان مخلدون ، بأكواب وأباريق وكأس من معين لا يصدعون عنها ولا ينزفون ، وفاكهة مما يتخيرون ، ولحم طير مما يشتهون ، وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون ، جزاء بما كانوا يعملون ، لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما ، الا قليلا سلاما سلاما.

وهم أيضا أصحاب اليمين ، وما أدراك ما أصحاب اليمين؟ إنهم فى سدر مخضود وطلح منضود ، وظل ممدود ، وماء مسكوب ، وفاكهة كثيرة ، لا مقطوعة ولا ممنوعة ، وفرش مرفوعة.

وهم الذين قال الله تعالى فى نسائهم (إنا أنشأناهن انشاء. فجعلناهن ابكارا. عربا أترابا. لأصحاب اليمين).

وهم ثلة من الأولين ، أى جماعة كثيرة ، وثلة من الآخرين.

وهم أيضا الذين قال الله فيهم: (ولمن خاف مقام ربه جنتان. فبأى آلاء ربكما تكذبان. ذواتا أفنان. فبأى آلاء ربكما تكذبان. فيهما عينان تجريان. فبأى آلاء ربكما تكذبان. متكئين على فرش بطائنها من استبرق وجنى الجنتين دان. فبأى آلاء ربكما تكذبان).

وهم الذين قال الله فى نسائهم: (فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن أنس قبلهم ولا جان. فبأى آلاء ربكما تكذبان. كأنهن الياقوت والمرجان. فبأى آلاء ربكما تكذبان).

وهم الذين ختم الله لهم هذا المشهد الكريم بقوله: (هل جزاء الاحسان الا الاحسان).

ومن هؤلاء أيضا الذين قال الله فى درجاتهم يوم القيامة: (ومن دونهما جنتان. فبأى آلاء ربكما تكذبان. مدهامتان. فبأى آلاء ربكما تكذبان. فيهما عينان نضاختان. فبأى آلاء ربكما تكذبان. فيهما فاكهة ونخل ورمان. فبأى آلاء ربكما تكذبان).

وقال الله فى حق نسائهم: (فيهن خيرات حسان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان. حور مقصورات فى الخيام. فبأى آلاء ربكما تكذبان. لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان. فبأى آلاء ربكما تكذبان. متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان. فبأى آلاء ربكما تكذبان. تبارك اسم ربك ذى الجلال والاكرام.

هذه صورة تنشرح لها النفس ، وينبسط لها القلب ، ويمتلىء الوجدان منها بهجة وسرورا.

انها جنات مليئة بالخير والبركات ، يلخص القران ما فيها فيقول: (وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون).
نعم! نعم الخلود ونعم الثواب وحسنت مرتفقا.

لا تركنن الى الدنيا وما فيها
فالموت لا شك يفنينا ويفنيها
واعمل لدار غدا رضوان خازنها
والجار أحمد والرحمن ناشيها
قصورها ذهب والمسك طينتها
والزعفران حشيش نابت فيها

(ان الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا. عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا. يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا. ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا. انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا. انا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا. فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا. وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا. متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيما شمسا ولا زمهريرا. ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا. ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا. قوارير من فضة قدروها تقديرا. ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا. عينا فيها تسمى سلسبيلا. ويطوف عليهم ولدان مخلدون اذا رأيتم حسبتهم لؤلؤا منثورا. واذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا.

عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا. ان هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا).

صدق الله العظيم

أنعم بالجزاء ، وأنعم بالسعي المشكور.

اللهم انا نسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين ، واذا أردت بعبادك فتنة فاقبضنا اليك غير مفتنونين.

يا عالم السر منا لا تكشف الستر عنا ، وعافنا واعف عنا ، وكن لنا حيث كنا.

يا أخا الاسلام:

لا تركنن الى القصور الفاخرة
واذكر عظامك حين تمسى ناخرة
واذا رأيت زخارف الدنيا
فقل يا رب ان العيش عيش الاخرة

النموذج الثانى: تنقبض له النفس ، ويرتاع له الفؤاد ، وتضيق له الصدور. انه مشهد قوم فى قلوبهم جحود وانكار وعناد ، بحيث لا تنفعهم بشارة ، ولا تؤثر فيهم نذارة ، انما أرسل الله اليهم البلاغ لقطع المعاذير عليهم. فهم لظلمات قلوبهم ، وتعطيل حواسهم ، ختم الله عليها (ان الذين كفروا سواء عليهم آأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون. ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم).

أما الأبصار فعليها غشاوة (وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا. الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعا).

أما المصير فمؤلم ومؤسف ومحزن ، لأنه خلود وأى خلود ، خلود فى النار ، وما أدراك ما سقر؟ لا تبقى ولا تذر. لواحة للبشر. عليها تسعة عشر.

انهم الذين قال الله فيهم: (يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ، ولهم عذاب مقيم).

وقال فيهم: (لابثين فيها أحقابا. لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا ، الا حميما وغساقا).

وقال فيهم: (انا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها. وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا).

وقال فيهم: (وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير. إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تفور. تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير. قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء أن أنتم الا فى ضلال كبير. وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير. فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير).

وقال فيهم: (وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول يا ليتنى لم أوت كتابيه. ولم أدر ما حسابيه. يا ليتها كانت القاضية. ما أغنى عنى ماليه. هلك عنى سلطانيه).

وهؤلاء الذين يحكم الله عليهم بقوله: (خذوه فغلوه. ثم الجحيم صلوه. ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه. انه كان لا يؤمن بالله العظيم. ولا يحض على طعام المسكين. فليس له اليوم ها هنا حميم. ولا طعام الا من غسلين. لا يأكله الا الخاطئون).

انهم الذين قال الله تعالى فيهم: (ان الذين كفروا بآياتنا سوف

نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب ان الله كان عزيزا حكيما).

وهم الذين قال الله فيهم: (والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزى كل كفور. وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل).

فيقال لهم (أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير. فذوقوا فما للظالمين من نصير).

وهم الذين قال الله فيهم: (بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا. اذا رأيتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا. واذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا).

فيقال لهم: (لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا).

وهم الذين قال فيهم رب العزة: (ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين).

فيأتى الجواب: (بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون).

وهم الذين يلاقون مصيرهم من أول ساعة الاحتضار وفى

سكرات الموت ، (حتى اذا جاء أحدكم الموت قال رب ارجعون. لعلى أعمل صالحا فيما تركت).

فيقال له: (كلا انها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون. فاذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون).

وهم الأعداء يوم القيامة ، وقد كانوا أخلاء فى الدناي (اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب. وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار).

وهم الذين حكم الله عليهم بالخلود فى النار فى قوله جل شأنه (ان الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالا بعيدا. ان الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا. الا طريق جهنم خالدين فيها أبدا وكان ذلك على الله يسيرا).

وهم الذين قال الله فيهم: (ان الذين كفروا لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم. يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم).

وهم الذين يدور بينهم صراع مرير بين المستكبرين والضعفاء ،

ويصور القران الكريم هذا الصراع فى تلك الايات الكريمة:

«واذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا انا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار. قال الذين استكبروا انا كل فيها ان الله قد حكم بين العباد».

وعندما ييأس الضعفاء من المستكبرين يتوجهون الى خزنة النار.

اسمع معى الى قوله تعالى:

«وقال الذين فى النار لخزنة جهنم أدعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب. قالوا أو لم تك تآتيكم رسلكم بالبينات؟ قالوا بلى ، قالوا وما دعاء الكافرين الا فى ضلال».

وبعدما ييآسون من الخزنة يتوجهون الى مالك كبير الخزنة (ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال انكم ماكثون. لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون).

وعندما ييآسون من رئيس الخزنة يتوجهون الى الجبار جل فى علاه.

فاسمع معى الى المشهد من أوله:

يقول الله تبارك وتعالى:

(حتى اذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون. لعلى اعمل

صالحا فيما تركت كلا انها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون. فاذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون. فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون. ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا انفسهم فى جهنم خالدون. تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون. ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون. قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين. ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون. قال اخسئوا فيها ولا تكلمون. انه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين. فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون. انى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون. قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين. قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين. قال ان لبثتم الا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون. أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون. فتعالى الله الملك الحق لا اله الا هو رب العرش الكريم. ومن يدع مع الله الها آخر لا برهان له به فانما حسابه عند ربه انه لا يفلح الكافرون. وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين).

ان هذه النماذج من البشر هم أصحاب القلوب الميتة ، التى قال

الله فيهم: (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون).

وقال فيهم: (أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها ، فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور).

وكما قسمنا أصحاب القلوب السليمة الى قسمين ، وهم: السابقون ، وأصحاب اليمين ، فان أصحاب القلوب الميتة قسمان أيضا: تابعون ومتبوعون. أما المتبوعون فهم الذين قال الله فيهم: (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب).

وأما التابعون فاليهم تشير الآية : (أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور).

أصحاب القلوب المريضة هم المنافقون ، ومرض القلوب

قسمان: مرض شهوة وفيه يقول الله تعالى: (فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض).

فالقلوب المصابة بمرض الشهوة قلوب لا أمن فيها ولا أمان لها خلت وتجردت عن ذكر الله. والله جل جلاله يقول: (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله الا بذكر الله تطمئن القلوب).

أسأل الله أن يجعلنا من الذين تطمئن قلوبهم بذكره، وتشرق أفئدتهم بنوره.

أما مرض الشبهة فانه اضمار الكفر واظهار الاسلام، وهؤلاء هم الذين ورد فيهم مشاهد خطيرة من سور القرآن الكريم، منها ذلك المشهد الرهيب الذى بدأه الله تعالى بقوله: (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين) هذه أولى صفاتهم: اظهار الايمان بالقول واللسان، ونفى الايمان نفيا قاطعا عن القلب والجنان.

ماذا يقصدون بهذا الخداع والتمويه ولكن على من؟

على علام الغيوب الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور؟ انهم يخدعون أنفسهم ويكذبون عليها وان كانوا لا يشعرون بذلك، فالله قد أخبرهم به.

الله يدرى كل ما تضمر
يعلم ما تخفى وما تظهر
وان خدعت النـــاس لم
تستطع خداع من يطوى ومن ينشر

لماذا يخادعون؟ ولماذا يراءون؟

قال تعالى اجابة عن هذا السؤال: (فى قلوبهم مرض) فأى أنواع المرض قد أصاب قلوبهم؟ انه مرض الشبهة والريبة والشك.

ولما كانوا كذلك مصرين على عنادهم لا يحاولون تطهير قلوبهم ، زادهم الله مرضا ، أى عاقبهم على اصرارهم بزيادة مرض القلوب. هذا فى الدنيا ، وفى الآخرة لهم عذاب أليم بسبب كذبهم على أنفسهم ظنا منهم أنهم يكذبون على الله.

هؤلاء المنافقون مرضى القلوب زين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون.

وأكبر جريمة يقع الانسان فى شباكها ، أن يرى السوء حسنا — هنا تكون القلوب قد وصلت الى مرحلة العمى الحقيقى.

(فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور).

قال تعالى : (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا).

ان هؤلاء الناس من هذا الفريق.

(واذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض) أى بنشر الكذب والضلال والفتن والوقيعة وافساد ذات البين ، وتمزيق الصلات ، وقطع سبل المودة ، وايقاع العداوات والخصومات بين الناس ، وايغار الصدور بالبغضاء والشحناء والحقد والحسد. ماذا يكون جوابهم؟ قالوا (انما نحن مصلحون).

ولسنا ندرى كيف يحكمون على الفساد بالصلاح ، وكيف يحكمون على الشيء بضده ، وعلى الحقيقة بنقيضها ، ذلك لأنهم مرضى.

ومن يك ذا فم مر مريض
يجد مرا به الماء الزلالا
وما ضر الورود وما عليها
اذا المزكوم لم يطعم شذاها
قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد
وينكر الفم طعم الماء من سقم

لذلك عقب الله تعالى على قولهم بحكمه العادل الصادق: «ألا أنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون».

فما الذى منعهم من الشعور؟ مرض القلوب.

وهؤلاء الناس أيضا اذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس ، أى آمنوا ايمانا حقيقيا مبعثه القلب ، فجذوره ضاربة فى أعماق القلوب ، وثمراته صاعدة الى عنان السماء ، ان ثمرته هو العمل الصالح.

«ليس الايمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل ، وان قوما غرتهم الأمانى حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا نحن نحسن الظن بالله وكذبوا لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل».

ماذا يكن جواب هؤلاء اذا طلب منهم الايمان الحقيقى الصحيح؟

«قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء»؟

ما الذى جعلهم يحكمون على حقيقة الايمان بالسفه وخفة العقل والجنون؟.

أن مرض قلوبهم هو الذى جعلهم يحكمون بهذه الاحكام ، ومن ثم فقد جاء الحكم من الله صادقا وقاطعا (ألا أنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون).

ثم ماذا كان حالهم مع المؤمنين وغير المؤمنين؟

انه التردد والتذبذب ، وعدم القطع والجزم فى الأمور ، تردد

خبيث ، وتذبذب أشد خبثا «واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزئون».

أسمعت أخلاقا تسمح لصاحبها أن يحكم على الأشياء حسب هواه ومصالحه بحيث يأكل على الموائد كلها ، ويتسرب الى الصفوف لنفعية دنيئة وأنانية بذيئة؟ انهم هؤلاء.

ومن ثم فقد جاء الحكم عليهم من الله قاطعا: الله يستهزىء بهم) أى يجزيهم على استهزائهم بالعقوبة منهم. ثم يرخى لهم ويملى لهم ويستدرجهم من حيث لا يعلمون ، ويمدهم فى طغيانهم يعمهون ويترددون ويتحيرون.

ان هؤلاء الناس لا يوجد على وجه البسيطة أجهل منهم ، ولا أسفه من عقولهم ، لأنهم رأوا الحق حقا فأنكروه وحاربوه وعاندوه ، بل واصروا على عنادهم له.

قال تعالى: (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى).

هذا عقد بيع وشراء ، المبيع فيه هو الهدى والمشترى هو الضلالة.

هؤلاء الناس الذين تنكبوا جادة الطريق ، واتبعوا نوازع النفس الى مسالك الهوى. باعوا أغلى شيء وتركوه ، بل وطرحوه وراء ظهورهم ، واشتروا الضياع والضلال والبعد عن الحق.

باعوا أغلى الآشياء ، واشتروا أشدها شرا وضررا.

فما الحكم على هذا العقد العجيب الغريب؟

ان الله حكم عليه بقوله: (فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين).

ليس بعد هذا الخسران خسران مبين.

كان الهدى أمامهم فولوه ظهورهم ، وكان الضلال يهتف أمامهم بأنه الضلال فاعتنقوه بعدما عانقوه ، وفتحوا له أبواب القلوب ، وما كان للضلال والهدى أن يجتمعا فى قلب واحد ، فطرد الهدى وحل الضلال ، ووقعوا فى غياهب الظلمات وفلول الدجى وما كانوا مهتدين.

ما حالهم وما شأنهم؟

لقد ضرب الله لهم مثلين عجيبين ، يصوران حالهم اقوى تصوير وأبرعه:

المثل الأول: قال فيه مولانا جل ذكره: (مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون. صم بكم عمى فهم لا يرجعون).

يقول السادة المفسرون رضى الله عنهم: تقدير هذا المثل: أن الله سبحانه شبههم فى اشترائهم الضلالة بالهدى ، وصيرورتهم بعد البصيرة الى العمى ، بمن استوقد نارا ، فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها ، وأبصر بها ما عن يمينه وشماله وتأنس بها ، فبينما هو كذلك اذ طفئت ناره ، وصار فى ظلام شديد لا يبصر ولا يهتدى ، وهو مع هذا ، فهو أصم لا يسمع ، أبكم لا ينطق ، أعمى لا يبصر ، فلهذا لا يرجع الى ما كان عليه قبل ذلك. فكذلك هؤلاء المنافقون فى استبدالهم الضلالة عوضا عن الهدى ، واستحبابهم الغى على الرشد.

وفى هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا ، كما أخبر تعالى عنهم فى غير هذا الموضع والله أعلم.

والتشبه ههنا فى غاية الصحة ، لأنهم بايمانهم اكتسبوا أولا نورا ، ثم بنفاقهم ثانيا أبطلوا ذلك فوقعوا فى حيرة عظيمة ، فانه لا حيرة أعظم من حيرة الدين.

قوله تعالى: (ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون. صم بكم عمى فهم لا يرجعون) أى ذهب عنهم بما ينفعهم وهو النور ، وأبقى لهم ما يضرهم وهو الاحراق والدخان.

(وتركهم فى ظلمات) وهو ما هم فيه من الشك والكفر والنفاق.

(لا يبصرون) لا يهتدون إلى سبيل خير ولا يعرفونها.

وهم مع ذلك (صم) لا يسمعون خيرا ، (بكم) لا يتكلمون بما ينفعهم (عمى) فى ضلالة.

وعماية البصيرة ، كما قال تعالى: (فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) فلهذا لا يرجعون الى ما كانوا عليه من الهداية التى باعوها بالضلالة.

ولكى نزيد المعنى وضوحا لأن المقام يحتاج ذلك ، فاننا نسجل ما قاله السادة المفسرون القدامى ، فنقول وبالله التوفيق :

قال السدى فى تفسيره عن ابى ماللك وعن أبى صالح عن ابن عباس ، وعن مرة عن مسعود وعن ناس من الصحابة: (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) قال: أخذوا الضلالة وتركوا الهدى. وقال ابن اسحاق عن محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس: (أولئك اشتروا الضلالة بالهدى) أى الكفر بالايمان. وقال مجاهد: آمنوا ثم كفروا. وقال قتادة: استحبوا الضلالة على الهدى. وهذا الذى قاله قتاده يشبهه فى المعنى قوله تعالى فى ثمود (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى).

وحاصل قول المفسرين فيما تقدم أن المنافقين عدلوا عن الهدى الى الضلال ، واعتاضوا عن الهدى بالضلالة ، وهو معنى قوله تعالى (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) أى بذلوا الهدى ثمنا للضلالة ، وسواء فى ذلك من كان منهم قد حصل له الايمان ثم رجع عنه الى الكفر ، كما قال تعالى فيهم (ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم) أو أنهم استحبوا الضلالة على الهدى كما يكون حال فريق آخر منهم ، فانهم أنواع وأقسام.

ولهذا قال تعالى (فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) أى ما ربحت صفقتهم فى هذه البيعة ، وما كانوا مهتدين ، أى راشدين فى صنيعهم ذلك.

وقال ابن جرير: حدثنا بشير حدثنا يزيد حدثنا سعيد ابن قتادة: (فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) قد والله رأيتموهم خرجوا من الهدى الى الضلالة ، ومن الجماعة الى الفرقة ، ومن الأمن الى الخوف ، ومن السنة الى البدعة.

وهكذا رواه ابن حاتم من حديث يزيد بن زريع عن سعيد عن قتاده بمثله سواء.

(مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب

الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون. صم بكم عمى فهم لا يرجعون) يقال: مثل ومثل ومثيل أيضا والجمع أمثال. قال الله تعالى (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون).

وتقدير هذا المثل أن الله سبحانه شبههم فى اشترائهم الضلالة بالهدى ، وصيرورتهم بعد البصيرة الى العمى ، بمن استوقد نارا ، فلما أضاءت ما حوله ، وانتفع بها ، وأبصر بها ما عن يمينه وشماله ، وتآنس بها ، فبينا هو كذلك اذ طفئت ناره وصار فى ظلام شديد لا يبصر ولا يهتدى ، وهو مع هذا فهو أصم لا يسمع ، أبكم لا ينطق ، أعمى لو كان ضياء لما أبصر ، فلهذا لا يرجع الى ما كان عليه قبل ذلك. فكذلك هؤلاء المنافقون فى استبدالهم الضلالة عوضا عن الهدى ، واستحبابهم الغى على الرشد. وفى هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا ، كما أخبر تعالى عنهم فى غير هذا الموضع والله أعلم.

وقد حكى هذا الذى قلناه الرازى فى تفسيره عن السدى ثم قال: والتشبيه ههنا فى غاية الصحة ، لأنهم بايمانهم اكتسبوا أولا نورا ، ثم بنفاقهم ثانيا أبطلوا ذلك فوقعوا فى حيرة عظيمة ، فانه لا حيرة أعظم من حيرة الدين.

وزعم أبن جرير أن المضروب لهم المثل ههنا لم يؤمنوا فى وقت من الأوقات ، واحتج بقوله تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين).

والصواب أن هذا أخبار عنهم فى حال نفاقهم وكفرهم ، وهذا لا ينفى أنه كان حصل لهم ايمان قبل ذلك ثم سلبوه وطبع على قلوبهم. ولم يستحضر ابن جرير هذه الآية ههنا ، وهى قوله تعالى (ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون).

فلهذا وجه هذا المثل بأنهم استضاءوا بما أظهروه من كلمة الايمان ، أى فى الدنيا ، ثم أعقبهم ظلمات يوم القيامة.

قال: وصح ضرب مثل الجماعة بالواحد كما قال (رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت) أى كدوران الذى يغشى عليه من الموت.

وقال تعالى: (ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة).

وقال تعالى: (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا).

وقال بعضهم: تقدير الكلام: مثل قصتهم كقصة الذين

استوقدوا نارا.

وقال بعضهم: المستوقد واحد لجماعة معه. قلت: وقد التفت فى أثناء المثل من الواحد الى الجمع فى قوله تعالى (فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون. صم بكم عمى فهم لا يرجعون).

وهذا أفصح فى الكلام وأبلغ فى النظام.

وقوله تعالى : (ذهب الله بنورهم) أى ذهب عنهم بما ينفعهم وهو النور وأبقى لهم ما يضرهم وهو الاحراق والدخان.

قال السدى فى تفسيره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس ، وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة (فلما أضاءت ما حوله) زعم أن ناسا دخلوا فى الاسلام مَقْدِمَ نبى الله ﷺ المدينة ثم انهم نافقوا ، وكان مثلهم كمثل رجل فى ظلمه فأوقد نارا ، فلما أضاءت ما حوله من قذى أو أذى فأبصره حتى عرف ما يتقى منه ، فبينما هو كذلك اذا طفئت ناره ، فأقبل لا يدرى ما يتقى من أذى ، فذلك المنافق ، كان فى ظلمة الشرك فأسلم فعرف الحلال والحرام والخير والشر ، فبينما هو كذلك اذ كفر ، فصار لا يعرف الحلال من الحرام ، ولا الخير من الشر.

وقال العوفى عن ابن عباس فى هذه الآية قال: أما النور فهو ايمانهم الذى كانوا يتكلمون به ، وأما الظلمة فهى ضلالتهم وكفرهم الذى كانوا يتكلمون به ، وهم قوم كانوا على الهدى ثم نزع منهم فعتوا بعد ذلك.

وقال مجاهد: (فلما أضاءت ما حوله) أما اضاءة النار فاقبالهم الى المؤمنين والهدى.

وقال عطاء الخراسانى فى قوله تعالى: (مثلهم كمثل الذى استوقد نارا) قال: هذا مثل المنافق يبصر أحيانا ويعرف أحيانا ، ثم يدركه العمى ، عمى القلب.

وقال ابن أبى حاتم: وروى عن عكرمة والحسن والسدى والربيع بن أنس نحو قول عطاء الخراسانى.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله تعالى (مثلهم كمثل الذى استوقد نارا) قال: هذا مال المنافق يبصر أحيانا ويعرف أحيانا ثم يدركه عمى القلب.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله تعالى (مثلهم كمثل الذى استوقد نارا) الى آخر الآية ، قال: هذه صفة المنافقين ، كانوا قد آمنوا حتى أضاء الأيمان فى قلوبهم كما أضاءت النار لهؤلاء الذين

استوقدوا نارا ، ثم كفروا فذهب الله بنورهم فانتزعه ، كما ذهب بضوء هذه النار فتركهم فى ظلمات لا يبصرون.

وأما قول ابن جرير فيشبه مارواه على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى (مثلهم كمثل الذى استوقد نارا) قال: هذا مثل ضربه الله للمنافقين انهم كانوا يعتزون بالاسلام فيناكحهم المسلمون ويوارثونهم ويقاسمونهم الفىء ، فلما ماتوا سلبهم الله ذلك العز كما سلب صاحب النار ضوءه.

وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية: (ومثلهم كمثل الذى استوقد نارا) فانما ضوء النار ما أوقدتها ، فاذا خمدت ذهب نورها ، وكذلك المنافق كلما تكلم بكلمة الاخلاص بلا اله الا الله أضاء له ، فاذا شك وقع فى الظلمة.

وقال الضحاك (ذهب الله بنورهم) أما نورهم فهو ايمانهم الذى تكلموا به.

وقال عبد الرازق بن معمر عن قتادة (مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله) فهى لا اله الا الله ، أضاءت لهم فأكلوا بها وشربوا وآمنوا فى الدنيا ، وأنكحوا النساء وحقنوا دماءهم ، حتى اذا ماتوا ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا

يبصرون.

وقال سعيد عن قتادة فى هذه الآية: ان المعنى أن المنافق تكلم بلا اله الا الله فأضاءت له فى الدنيا ، فانكح بها المسلمين ، وغازاهم بها ، ووارثهم بها ، وحقن بها دمه وماله. فلما كان عند الموت سلبها المنافق ، لأنه لم يكن لها أصل فى قلبه ، ولا حقيقة فى عمله (وتركهم فى ظلمات لا يبصرون).

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (وتركهم فى ظلمات لا يبصرون) يقول: فى عذاب اذا ماتوا.

وقال محمد بن اسحاق عن محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس (وتركهم فى ظلمات) أى يبصرون الحق ويقولون به حتى اذا خرجوا من ظلمة الكفر أطفاؤه بكفرهم ونفاقهم فيه ، فتركهم فى ظلمات الكفر ، فهم لا يبصرون هدى ، ولا يستقيمون على حق.

وقال السدى فى تفسيره بسنده: (وتركهم فى ظلمات) فكانت الظلمة نفاقهم.

وقال الحسن البصرى: (وتركهم فى ظلمات لا يبصرون) فذلك حين يموت المنافق فيظلم عليه عمله ، عمل السوء ، فلا يجد عملا

من خير عمل به يصدق به قول لا اله إلا الله (صم بكم عمى).

قال السدى بسنده: (صم بكم عمى) فهم خرس عمى.

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (صم بكم عمى) يقول: لا يسمعون الهدى ولا يبصرونه ولا يعقلونه. وكذلك قال أبو العالية وقتادة بن دعامة (فهم لا يرجعون).

قال ابن عباس: أى لا يرجعون الى هدى. وكذا قال الربيع بن أنس.

وقال السدى بسنده : (صم بكم عمى فهم لا يرجعون) الى الاسلام.

وقال قتادة: (فهم لا يرجعون) أى لا يتوبون ، ولا هم يذكرون.

وهذا مثل آخر ضربه الله المنافقين قال فيه تعالى: (أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذرَ الموت والله محيط بالكافرين. يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه ، واذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ان الله على كل شيء قدير).

قال العلامة ابن كثير: هذا مثل آخر ضربه الله تعالى لضرب آخر من المنافقين وهم قوم يظهر لهم الحق تارة ، ويشكون تارة

أخرى ، فقلوبهم فى حال شكهم وكفرهم وترددها (كصيب والصيب المطر. قاله ابن مسعود ، وابن عباس ، وناس من الصحابة ، وأبو العالية ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعطاء والحسن البصرى ، وقتادة ، وعطية العوفى ، وعطاء الخراسانى ، والسدى ، والربيع بن أنس.

وقال الضحاك: هو السحاب.

والأشهر هو المطر نزل من السماء فى حال ظلمات ، وهى الشكوك والكفر والنفاق (ورعد) وهو ما يزعج القلوب من الخوف ، فان من شأن المنافقين الخوف الشديد والفزع.

كما قال تعالى : (يحسبون كل صيحة عليهم).

وقال: (ويحلفون بالله أنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون. لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا اليه وهم يجمحون).

(والبرق) هو ما يلمع فى قلوب هؤلاء الضرب من المنافقين فى بعض الأحيان من نور الايمان ، ولهذا قال: (يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين) أى ولا يجدى عنهم حذرهم شيئا ، لأن الله محيط بقدرته وهم تحت مشيئته

وارادته. كما قال: (هل أتاك حديث الجنود. فرعون وثمود. بل الذين كفروا فى تكذيب. والله من ورائهم محيط) بهم.

ثم قال: (يكاد البرق يخطف أبصارهم) أى لشدته وقوته فى نفسه ، وضعف بصائرهم وعدم ثباتها للايمان.

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : (يكاد البرق يخطف أبصارهم) يقول: يكاد محكم القرآن يدل على عورات المنافقين.

وقال ابن اسحاق: حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس : (يكاد البرق يخطف أبصارهم) أى لشدة ضوء الحق (كلما أضاء لهم مشوا فيه واذا أظلم عليهم قاموا) أى يعرفون الحق ويتكلمون به ، فهم من قولهم به على استقامة ، فاذا ارتكسوا منه الكفر قاموا أى متحيرين.

وهكذا قال أبو العالية ، والحسن البصرى وقتادة ، والربيع بن أنس، والسدى بسنده عن الصحابة ، وهو أصح وأظهر والله أعلم.

وهكذا يكونون يوم القيامة عندما يعطى الناس النور بحسب ايمانهم ، فمنهم من يعطى من النور ما يضىء له مسيرة فراسخ ، وأكثر من ذلك وأقل من ذلك ومنهم من يطفأ نوره تارة ويضىء

أخرى.

ومنهم من يمشى على الصراط تارة ويقف أخرى.

ومنهم من يطفأ نوره بالكلية وهم الخلص من المنافقين الذين قال تعالى فيهم (يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا).

وقال فى حق المؤمنين : (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار) الآية.

وقال تعالى: (يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا أنك على كل شيء قدير).

قوله تعالى: (ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ان الله على كل شيء قدير).

قال محمد بن اسحاق: حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله تعالى: (ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم) قال: لما تركوا من الحق بعد معرفته (ان الله على كل شيء قدير) قال ابن عباس: أى أن الله على كل ما

أراد بعباده من نقمة أو عفو قدير.

وقال ابن جرير: انما وصف الله تعالى نفسه بالقدرة على كل شيء فى هذا الموضع، لأنه حذر المنافقين بأسه وسطوته، وأخبرهم أنه بهم محيط، وعلى اذهاب أسماعهم وأبصارهم قدير. ومعنى قدير قادر، كما أن معنى عليم عالم.

وذهب ابن جرير ومن تبعه الى أن هذين المثلين مضروبان لصنف واحد من المنافقين، وتكون (أو) فى قوله تعالى: (أو كصيب من السماء) بمعنى الواو كقوله تعالى (ولا تطع منهم آثما أو كفورا) أو تكون للتخيير، أى: اضرب لهم مثلا بهذا وان شئت بهذا — قال القرطبى: أو للتساوى مثل جالس الحسن أو ابن سيرين، على ما وجهه الزمخشرى ان كلا منهما مساو للآخر فى إباحة الجلوس اليه، ويكون معناه على قوله: سواء ضربت لهم مثلا بهذا أو بهذا، فهذا مطابق لحالهم.

(قلت): وهذا يكون باعتبار جنس المنافقين، فانهم أصناف، ولهم أحوال وصفات كما ذكرها الله تعالى فى سورة براءة: ومنهم — ومنهم — ومنهم يذكر أحوالهم وصفاتهم وما يعتمدونه من الأفعال والأقوال، فجعل هذين المثلين لصنفين منهم أشد مطابقة لأحوالهم

وصفاتهم. والله أعلم.

كما ضرب المثلين فى سورة النور لصنفى الكفار الدعاة والمقلدين فى قوله تعالى (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة) الى أن قال (أو كظلمات فى بحر لجى) الآية.

فالأول للدعاة الذين هم فى جهل مركب ، والثانى لذوى الجهل البسيط من الأتباع المقلدين. والله أعلم بالصواب.

ونختتم هذا البحث بهذا الحديث النبوى الجامع الذى يحدثنا فيه الرسول ﷺ عن القلوب فيقول:

للقلوب أربعة: قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر ، وقلب أغلف مربوط على غلافه ، وقلب منكوس ، وقلب مصفح ـــ فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن فسراجه فيه نوره ، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر ، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق الخالص ، عرف ثم أنكر ، وأما القلب المصفح فقلب فيه ايمان ونفاق ، ومثل الايمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب. ومثل النفاق فيه كمثل القرحة ، يمدها القيح والدم ، فأى المادتين غلبت الأخرى غلبت عليه» وهذا اسناد جيد حسن.

وبهذا ينتهى الحديث عن نفاق العقيدة.

أما نفاق العبادة ، فهو أن يقصد الانسان بعبادته الرياء والسمعة. ومن هنا فقد نهى الله عن ذلك فى قوله تعالى (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا).

وقد ورد فى الحديث القدسى الجليل: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن عمل عملا أشرك فيه غيرى تركته وشريكه».

أما نفاق المعاملة فقد وردت عدة أحاديث عن رسول الله ﷺ تبين الصفات السلوكية التى اذا اجتمعت فى انسان ما أدخلته فى دائرة النفاق السلوكى وهو خطر مدمر للمجتمع.

ونحن هنا نسوق هذه الأحاديث بنصها لنستخرج منها كل هذه الصفات:

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: (آية المنافق ثلاث: اذا حدث كذب ، واذا وعد أخلف ، واذا أؤتمن خان».

وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ «أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه خلة منهن كانت فيه خلة من نفاق حتى يدعها: اذا حدث كذب ، واذا عاهد غدر ، واذا وعد أخلف ، واذا خاصم فجر» رواهما الأربعة.

وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال: «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين، تعير الى هذه مرة والى هذه مرة».

وعن عبد الله رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى الا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم أنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون مالا يفعلون، ويفعلون مالا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل». رواهما مسلم.

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من حمل علينا السلاح فليس منا، ومن غشنا فليس منا» رواه الشيخان.

ومن مجموع هذه الأحاديث يستفاد أن آيات النفاق تتلخص فيما يلى:

(أ) الكذب فى الحديث.

(ب) الخلف فى الوعد.

(جـ) الخيانة فى الأمانة.

(د) الغدر فى العهد.

(هـ) الفجور فى الخصومة.

وما من شك فى أن هذه الرذائل ما شاعت فى مجتمع الا كان الذل رائده والخسران حليفه ، واذاقه الله لباس الجوع والخوف.

فمن أراد أن يتوب الى الله من هذه الأمراض الوبائية الخطيرة ، فليتحل بأضداد تلك الرذائل ، فليصدق اذا حدث ، وليكن وفيا اذا وعد ، وليكن أمينا اذا ائتمن.

قال تعالى: (والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون).

وقال تعالى: (ليجزى الله الصادقين بصدقهم).

وقال عز من قائل: (واذكر فى الكتاب اسماعيل أنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا).

وقال تبارك اسمه: (ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها).

وقال: (يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون).

وقال ﷺ : «أد الأمانة الى من ائتمنك ، ولا تخن من خانك».

واذا كان غدر العهد صفة من صفات النفاق ، فان الوفاء به سجية كريمة من سجايا الايمان.

(أن الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون. وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاِ ان الله يعلم ما تفعلون).

واذا كان الفجور فى الخصومة رذيلة من رذائل النفاق ، فان السماحة والعفو من شيم الكرام:

(ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم. وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم»).

هذا ، ومن كرم الله تعالى أنه فتح باب توبته لنتوب ونئوب ونثوب.

قال عز من قائل: (ان المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا. الا الذين تابوا واصلحوا واخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤتى الله المؤمنين أجرا عظيما. ما يفعل الله بعذابكم أن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليما. لا يحب الله

الجهر بالسوء من القول الا من ظلم).

نسأل الله العلى العظيم ان يطهر قلوبنا من الغش والنفاق ، ونفوسنا من البغضاء والشحناء ، وافئدتنا من الرياء والسمعة ، وأن يرزقنا قبل الممات توبة ، وعند الممات شهادة ، وبعد الممات جنة.

(ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب. ربنا انك جامع الناس ليوم لا ريب فيه ان الله لا يخلف الميعاد).

هذا والحمد لله أولا وآخرا ، وعليه التكلان ، وهو المستعان.

تم بحمد الله.

الفهـرس

الموضوع | الصفحة

طبع بمطابع المروة بالأسكندرية
تليفون : ٤٣٠١٣٤٨ ـــ ٤٣٠١٣٤٩